إثنا عشر رجلاً

يوسف السباعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الإهـــداء

إلى نابغة الشرق وعبقرى الجيل :

الأستاذ توفيق الحكيم

أهدى كتابى هذا ...

وأنا الذى أهـدى أقل بهـارة
حسنا لأحسـن روضـة مئناف

« يوسف السباعى »

★ الاهداء بلا مقابل ، ليطمئن قلب الكاتب الكبير ، ويقبل الاهداء .

مقدمة

كثيرا ما أسائل نفسي وأنا أتأمل ابنتي « بيسا » ماذا ستقول عن أبيها عندما تبلغ سن النضج وتقرأ هذه القصص الملأى بالحب ٠٠ وكيف أستطيع أنا ، كأب ، أن أردعها أو أزجرها أو أنهاها عن حب تساق اليه اذا كانت ثلاثة أرباع قصصي تتلخص في أن « كل شيء ما خلا الحب عبث » ٠

هذه ولا شك مشكلة عويصة ، فما أظن أنني أستطيع أن أنكر ذلك الرونق الذي أضفيته على الحب في كتبي ، فمن العسير على الانسان أن ينكر ماضيه ٠٠ وخاصة اذا شهدت عليه كتب مطبوعة ٠

حقيقة أن كثيرا من الساسة تعودوا مثل هذا الانكار ولكني لم أصل بعد من الصفاقة الى مرتبة هؤلاء الساسة ٠٠ فتلك موهبة لا يهبها الله الا للساسة من عباده ٠٠ وعلى ذلك فلا أظنني الا مقرا بكل ما كتبت ، معترفا بكل ما قلت من أن الحب لا خيرة فيه بل هو من الأشياء التي يساق اليها الانسان اضطرارا ، وأن المرء ليصاب به كما يصاب بمرض من الأمراض ، وأن القلوب عمياء ٠٠ ما خلق الله في الانسان أكثر منها حمقا وخرقا ٠٠ تندفع في الحب بلا روية ولا تفكير ٠٠ ما استطاع امرؤ قط أن يسيطر عليها أو يتحكم فيها

أجل لا أظنني أستطيع أن أنكر كل هذا الذي كتبته أو أنسبه الى انسان آخر ، أو أدعى أنى لم أكن بكامل قواى العقلية وأنا أكتب ما كتبت عن الحب ٠٠ ولكن يبدو لى أنني قد أجد لى خلاصا بالمحاورة والمداورة ، ويخيل الى أن هذا الحديث الذى دار بيني وبين احدى بطلات قصصى قد يدور بينى وبين ابنتى فى يوم من الأيام اذا ما حاولت أن أنكر عليها حبا لا أقره كأب ٠٠ حبا أجد فيه ، وأنا الرجل العاقل الحصيف الذى سأكونه وقتذاك ، نوعا من الطيش والنزق واندفاع الشباب ٠٠ حبا أخشى ألا يهيىء لها أسباب الهناء والسعادة التى أتمناها لها فى مستقبل حياتها ٠

ويخيل الى أنها ستقول لى :

– حتى أنت ؟ أنت الذى تضع الحب فى كتابتك فى المرتبة الأولى من مراتب الحياة ٠٠ تنكر على حبى ؟ !!

فأطرق ، ثم أجيبها فى تؤدة :

– يا بنيتى العزيزة ٠٠٠ أنا أقول ذلك فى الكتابة فقط ، فنحن نحاول بالكتابة أن نهيىء لأنفسنا ناحية من الارضاء نفتقدها فى الحياة ، نجدها قد انهارت وتطايرت كدخان فى الهواء ٠٠ فحبك هذا قد يصلح لأن يكون موضوعا لقصة ناجحة ٠٠ أما أن نجعل منه حقيقة واقعة نفرضها على حياتنا ، فلا شك أننا سنصاب منه بحسرة وندم ٠ اننا لكى ننجح فى الكتابة يجب أن نحكم قلوبنا ، ولكن لكى ننجح فى الحياة يجب أن نحكم عقولنا ٠

وبالطبع لن تسمع لنصيحتى ٠٠ بل من يدرى قد تذكرنى بقولى : « اياك ونصح العشاق ٠٠ ان فى أذانهم صمما لا يسمح بدخول النصيحة أو هو يسمح بها ثم يطردها من الأذن الأخرى » ٠

ان كل ما أملكه نحوك يا بنيتى ٠٠ هو أن أدعو الله أن يوفقك الى

الزوج الصالح الذى يهيىء لك حياة راضية ٠٠ تلك هى خير ما يمكن أن يتمناه انسان لامرأة ٠

انى أنكر ما قالته أمك ذات مرة من أنها لا تتمنى لك أكثر من أن تتزوجى انسانا مثلى ٠

ولقد اعتبرت قولها خير ما نلته فى حياتى من مديح وثناء ، وقد أكون لا أستحق شيئا منه ، وقد تكون مخدوعة فى ٠٠ وقد أكون لديها « كالكعكة فى يد اليتيم » ٠٠ ولكن ماذا تهمنى ما دامت ترانى خير الرجال ٠٠ وما دامت راضية عنى الرضا الذى يجعلها تتمنى لك — وأنت أعز من لديها — انسانا مثلى ٠

لست أدرى ما الذى جعلنى أشغل بك مقدمة كتابى ٠٠ ولكنها كلمة قد تسرك فى زمن ما ٠٠ عندما تبلغين مبلغ الأنوثة ٠٠ وتقبلين على قراءة هذا الكتاب الذى حوى بين ضفتيه اثنى عشر رجلا من مختلف أنواع الرجال ، فتعجمين أعوادهم ، وتقلبينهم بين كفيك وتستعرضينهم الواحد تلو الآخر ٠٠ ثم تدرسينهم دراسة جيدة ٠٠ وتعرفين الكثير عن أنواع الرجال ٠٠ دون أن يصيبك شىء من شرورهم ٠

هذا الكتاب يا بنيتى ٠٠ نور بلا حر ٠٠ وشهد بلا ابر ٠

« يوسف السباعى »

رجـــل وظـــلال

كثيرا ما سألت نفسى ·· هل تقاس قيمة الناس حسب مراكزهم التى يشغلونها فى الحياة ؟ وهل نستطيع أن نقدر مواهبهم وكفاياتهم وأفضالهم ·· بمقدار ما يبلغونه فى دنياهم ؟

وهل يحق لنا أن نقول ان فلانا قد وصل الى أكبر المناصب ·· لأنه قد وهب من الصفات والمزايا ما هيأ له أن يسبق سواه ويتقدم غيره ؟

أو ان فلانا ما زال موظفا ضئيلا لأنه قد حرم كل ما يدفعه الى السبق أو يهيىء له التقدم ·

سمعت صاحبا يؤنب خادما له قد أخطأ فى أداء عمل كلفه اياه قائلا :

ـ أيها الغبى ·· ماذا أقول لك ·· وماذا أتوقع منك أكثر من هذا الغباء ؟ ·· لو كنت أكثر ذكاء لما بقيت حتى الآن خادما ·· ولكنت خيرا مما أنت فيه ·

هل صدق صاحبى فى قوله ؟ وهل خادمه ما زال خادما ولم يصبح رئيس وزراء مثلا ؟ لأنه لا يتمتع بقدر من الذكاء كالذى يتمتع

به رئيس وزراء ؟ وهل الفارق بين ذكاءيهما كالفارق بين مركزيهما ؟

لا أظن ·· أو على الأصح قد يكون ·· فقد يبقى البعض فى بؤر الحيـــاة ، لا يستطيعون الصعود ·· لأن غبـــاءهم وضيق عقلهم يثقلانهم ويشدانهم الى أسفل · فيقضون حياتهم فى زوايا الخمول ·· ولكن البعض قد تضمهم أيضا زوايا الخمول ·· لا لغباء أو ضيق عقل ولا لخلو من الأفضال والمزايا ، بل لأسباب لا دخل لهم فيها ، ولا صلة لهم بها ·· أو على الأصح ، لغير أسباب سوى أنهم لم تسنح لهم سانحة حظ ، أو لم تلح لهم بارقة أمل ·

ولست أشك أن خير مثل ·· لهذا النوع الأخير الملقى فى زوايا الخمول ، بلا ذنب ولا سبب ، هو بطـل قصتنا هـذه : عم شحاتة الكفراوى ·

وزوايا الخمول بالنسبة اليه لا تزيد على حجرة متواضعة بأسفل منزل فى حى المنيرة ·· يقضى فيها ، أو على بابها ، ليله ونهاره ، راضيا مغتبطا ·

وكم من مرة شرد بى الذهن فأخذت أضع عم شحاتة هذا فى شتى المواضع ومختلف المناصب ، فأراه مرة قائدا يضع الخطط ، ويدير المعارك ويقود الجنود ·· ولا أجد فى ذلك أية غضاضة أو غرابة بل أجد من مهـابته وشجاعته ما يكفل كل نصر ونجاح ، وأراه مرة أخرى زعيما يخطب الجماهير ، أو سياسيا يحرك الأحزاب ويسيطر على الأذهان · فلا أستغربه فى أية صورة بل أجده أفضل كثيرا ممن أتيحت لهم الفرصة فوصلوا الى ما لم يصل اليه ·

وقد يكون ذلك التصور منى ليس الا مبالغة ·

أو قد يكون الدافع له هو حبى للرجل وفرط اعجابى به ·· أو قد يكون مجرد سخف ·· أو جنون ·· من يدرى ؟ ·

ولكن لم لا أريح نفسى وأصف لكم الرجل ؟

في شارع المنيرة ·· فى بيت من البيوت القديمة ، لا يزيد على طابق واحد ـ سلاملك ـ متسع الحجرات ، رحب الشرفات ·· كانت تقوم فى حديقته الضيقة حجرة صـغيرة ـ منظرة ـ تطل نافذتها الحديدية على الشارع ، ويفتح بابها الخشبى الملون الزّجاج فى الحديقة ·

وفى داخـل الحجرة كان يبـدو عم شحاتة راكعا على سجادة الصلاة بجلبابه ·· وعباءته الفضفاضة ·· وطاقيته الصوفية ·· وتسمع صوته الهامس يختم الصلاة بـ « السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله » ·

ولست أريد بهذا الوصف أنْ أدخل فى روعكم ·· أن الرجل من النـوع الورع التقى ·· الورع الى حـد البله ·· التقى الى حـد السخف ·· النوع الذى لا يرى الا وعلى شفتيه تمتمة وأصـابعه تعبث بحبات المسبحة ·· النوع الذى تطالعك من جبينه زبيبة صلاة سوداء لكثرة السجود ·· النوع الذى يضيع عمره فى شكر الله ·· دون أن يحاول أن ينال ما يستدعى رضا الله ·· أو يتمتع بما أعطاه الله ·

هذا النوع الذى يستغفر الله بكرة وأصيلا فى كل لحظة وآونة ·· بسبب وبلا سبب ·

هذا النوع لا يزيد على أن يكون انسانا سلبيا وجوده كعدمه ·

ليس الرجل قطعا من ذلك النوع ·

فقد كان رجلا ذكيا ·· وأظن ذلك هو خير ما يوصف به ·

وأنا أحترم الرجل الذكى ، وأعتقد أن خير ما يهبه الله لانسـان هو الذكاء ·

ويكفى أن يكون الانسان ذكيا ليكون كل شىء ·· فالذكاء يبعث الانسان على أن يكون انسانا فاضلا ·

والذكى لا يرتكب الاثم ولا يلقى بنفسه فى حمأة الرذيلة ·

والذكى لا يحرم نفسه متع الحياة ، ولا يقبل عليها بنهم يحمله على الندم ·

أجل ! الذكى لا يفعل أبدا ما يدعو الى الاعتذار ، أو الاستغفار ··

كان الرجل ورعا تقيا ·· ولكنه كان ذكيا ·· فكان ورع الجوهر ، تقى الباطن ·· لا يكثر من مظاهر ورعه وتقواه ·

وكان يعطى ما للناس للناس وما لله لله ·

وكان ينتهى من تأدية فريضة الله ليقبل على ديوان لابن الرومى أو لأبى العلاء ·· فيترنم بشعره ، ويعيد علينـا بعض ما يستمتع ويستظرف ·

فاذا سمع أغنية جميلة أو موسيقى حلوة طرب لها وانتشى ·

وكثيرا ما كنا نسمعه يدندن لنفسه بصوت هادىء جميل ·

ولست أظن أن الرجل ، رغم كل ما ذكرت من صفات ، كان يمكن أن ينال من اعجابى ما نال ·· لو لم يكن على ما هو عليه من مرح وخفة روح ·

فأنا لا أحترم – بعـد الرجل الذكى – الا الرجل المرح الخفيف الروح ·

ولا أظن أن هناك فارقا بين الرجل الذكى والرجل المرح ·

فالذكى لا بد أن يكون مرحا ، والمرح لا بد أن يكون ذكيا · وليس أدل على الغباء من التزمت وتصنع الوقار وادعاء الهيبة ·

كان عم شحاته مثلا لانسان حاضر البديهة ·· سريع النكتة ، وما أظننى قد ضحكت قط كما ضحكت فى مجلسه ، ولم يكن من النوع الذى يضحك على حساب غيره ·· أو الذى يلقى النكات فيضحك البعض ويؤلم البعض الآخر ، أو كان مثلا يستضعف انسانا فيجعله موضع نكاته ·

بل كانت نكاته وفكاهاته ·· خالصة لا تشوبها شائبة ·· ولا يتأذى منها انسان ·

بل تضحك كل انسان ·

ثم هو بعد ذلك ·· أقدر الناس على فهم الناس ·· وعلى التفاهم معهم ، وأقدرهم على ارضائهم مهما اختلفت عقلياتهم وتشعبت ميولهم ·· وتباينت أهواؤهم ·· وهو كذلك أقدر الناس على نصح الناس وارشادهم دون أن يحرجهم أو ينال منهم ·

فتراه يشترك معى فى احاديث عن الحب وفى استملاح هذه أو تلك · ثم يسوق النصح الى ، أو على الأصح يتسلل به الى فى خلال حديثه ، فلا يصدمنى به ، بل يزجيه الى هينا لينا ·· مقبولا · مستساغا ·

وكان الرجل كريم النفس ·· سمحا أبيا ·· يزخر قلبه بالحنان ·· وتفيض نفسه بالعطف ·· يحس بآلام الغير كأنها آلامه ·

ولا يستريح حتى يزيلها ، أو يشترك معه فى حملها ·

ترى هل أسرفت فى مدح الرجل ؟ أبدا والله ·

لقد كان الرجل ـ بعد كل ما قلته ـ خيرا مما قلت ·

لقد كان انسانا يحب ·

أو كان رجلا ·· فى زمن أقفر من الرجال ·

ولكن ماذا كان الرجل يفعل ·· بعد كل ما خلعت عليه من صفات الرسل وفضائل الأنبياء ؟

ماذا كان يفعل ؟ !

لست أدرى !

لقد عرفت عنه شيئا كثيرا ، ولكنى مع ذلك لم أدر ماذا كان يفعل ، وماذا كانت صلته بأهل الدار ·

بواب ؟ !

لا أظن .. فلقد كان مظهره ومعاملتهم له توحى بأنه أرقى من ذلك .

قريب لهم ؟

لا أظن أيضا ، فتصرفه معهم واحترامه لهم لا يوحى بذلك .

ولو أنه كان قريبا لهم ، فلم لم يأو معهم الى داخل الدار ؟

ثم أكثر من هذا وذاك :

ما الذى يجبره على أن يقطن فى الحجرة الصغيرة بلا عمل سوى مراقبة الدار وتأدية الخدمات التى يطلبها منه أهلها ؟

لم لا يخوض غمار الحياة ، وهو الماهر الذكى ؟ . لم يقبع فى حجرته قانعا راضيا ؟ .

ولكن من كان أهل الدار ؟ .

كان رب الدار عالما من كبار العلماء .. وشيخا وقورا معمماً من رجال الأزهر .. ذا منصب محترم ، ومكانة عالية ، تبدو عليه مظاهر الطيبة والهدوء .. سمح الوجه ، من النوع الذى وصفناه فى بادىء الأمر بأنه ورع ، تقى ، فقط . النوع الذى حذرتهم أن يظنوا عم شحاته منــه ، بتسبيحه وتمتمته ، دائم الوضوء ، دائم الركوع والسجود ، يقبل الناس يديه ، ويرجون دعواته ، وبركاته ، ويجدون فيه مثلا للصلاح ، والطيبة .. وهو الى جانب هذا يتمتع بين أقرانه بسمعه طيبة فله مؤلفات فى الفقه والدين واللغة ، تشهد له بسعة الاطلاع .

ويقطن الرجل فى داره مع زوجته وولده وابنته .. أما الزوجة فانها امرأة بين الكهولة والشباب .. لم تستطع السنون الأربعون التى مرت بها أن تخفى شيئا من جمالها الهادىء الساكن .. فبدا وجهها حلو التقاطيع .. جذاب الملامح .. وان كانت قد انتابتها سمنة وترهل شأن كل سيدات البيوت المصريات بعد الحمل والولادة .

أما الابن والابنة ، فكانا مثلا لجمال الخلق والخلق وما أظنهما مستطيعين ألا يكونا كذلك ، وأبوهما وأمهما قد جمعا جمال المظهر وجمال الجوهر ٠

ترى ماذا كان موضع عم شحاته من هذه الأسرة الطيبة الهادئة الآمنة ؟

لو أن الرجل أكبر سنا مما هو الآن ٠٠ لقلت عنه : جد للأبناء ٠٠ وأب للأم أو للأب ٠

فهو شديد الحب للأربعة ٠٠ جم العناية بهم ، لا هم له الا أن يهيىء لهم أسباب الراحة والهناء ، ويوفر لهم دواعى المرح والسرور ٠٠ اذا مرض أحدهم فهو الساهر الذى لا ينام ، واذا أصاب واحدا مكروه فهو الباكى المتوجع ، واذا حدث بين الرجل وامرأته أى نزاع مما لا يخلو منه بيت فهو المصلح الموفق ، واذا أقبلوا على معضلة فهو الناصح الأمين ٠

واذا احتاج أحدهم لشىء ، فهو قاضى الحاجات الذى لا يشكو ولا يمل ٠

وكانت دارنا تقع أمام الدار المذكورة ٠٠ ولم تكن تجمع بيننا وبين أهلها صلات روابط الجيرة فحسب ٠٠ بل كنا أشبه بأهل وأقرباء ٠

فكان أبى صديقا لرب الدار وكنت أعتبر ابنته وابنه أخوى ٠

أما والدتانا فكانتا لا تكادان تفترقان ٠

وكثيرا ما كانت تجمعنا الليالى فى مجالس أنس وسرور ، فيفيض علينا عم شحاته بفكاهته ومرحه ، ويشيع فى جو المجلس بشرا ، وحبورا ٠

وظللنا واياهم على هذه الحال ٠٠ من المودة والألفة ٠٠ حتى فرقتنا الظروف ٠

فقد نقل أبى من القاهرة ، فاضطررنا الى الرحيل معه ، وأخذنا نتبادل الرسائل والزيارات المتباعدة فى الأعياد والمناسبات ، حتى سمعنا ذات يوم نبأ وفاة السيدة ٠

وروعنا النبأ ٠٠ وأصابنا حزن شديد ٠٠ وما أنكر أنى رأيت والدتى تبكى بمثل تلك الحرقة التى بكت بها السيدة ، والواقع أنها كانت امرأة نموذجية ٠٠ فى كل شىء ٠٠ وكانت حقا تستحق البكاء ٠٠ ومرت بنا الأيام وخفف بعد الشقة وقلة المزار مما بيننا وبين الأسرة الصديقة من روابط وصلات ٠ وشغلتنا عنهم شئون الحياة وشجونها ٠٠ فما عدنا نتذكرهم الا لماما ، حتى انتقلنا مرة أخرى الى القاهرة ٠٠ وقادتنى قدماى ذات مرة لزيارتهم ، فقد كنت أحس بشوق الى عم شحاته والى مجلسه اللطيف ٠

ووقفت أمام باب الحديقة الحديدى ، ودفعته بيدى ، ودلفت الى الداخل ، واتجهت حسب عادتى الى حجرة عم شحاته على يسار الداخل وطرقت بابها طرقا خفيفا ٠

ولم يجب أحد ٠٠ فظننت الرجل يصلى ، وانتظرت برهة ، ثم أعدت الطرق ، ولكنى لم أسمع صوتا ٠٠ وضغطت مقبض الباب ودفعته أمامى ، فاذا بالحجرة خالية لا من الرجل فقط بل من مقاعدها وأرائكها وصناديقها وكراكيبها ، واذا بى لا أجد أمامى سوى أرض مجردة وجدران عارية ٠

وأغلقت الباب واتجهت الى باب الدار ، وقد شرد ذهنى وانتابنى خوف وحزن ٠٠ وساءلت نفسى : أين الرجل ؟ تراه قد مات هو الآخر ؟

ووجدت باب الدار غير محكم الغلق ، فدلفت الى القاعة وبحثت فى جوانبها فلم أجد مخلوقا ٠٠ وصفقت بيدى تصفيقا خفيفا حتى يجيبنى من فى الدار ، فلم يرد على أحد ٠٠ وكنت واثقا انه لا بد أن يكون هناك انسان فى الدار ٠٠ على الأقل واحد من الخدم ،

وخاصة بعد أن وصل الى مسمعى ٠٠ صوت انســان يتحرك فى المطبخ ٠

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحا ، رغم أن الشمس لم يبد لها أثر فى السماء ، فقد كان اليوم من أيام الشتاء التى تغلب فيه الشمس على أمرها ٠٠ وتحجب وراء ستار من السحب الثقيلة المعتمة ٠٠ ولم يكن خلو الدار من أهلها بمثير دهشتى ٠٠ فقد كنت أتوقع أن يكون الأب والابن قد ذهبا الى أعمالهما وأن تكون الابنة قد ذهبت الى مدرســتها ٠٠ ولكن الذى أدهشنى هو ألا أجد لعم شحاته أثرا فى الدار ، وأن أجد حجرته خاوية على عروشها !

وتقدمت مترددا حتى وصلت الى المطبخ ووقفت ببابه فبدا لى منظر طريف ما كنت أتوقعه قط ٠

وجدت عم شحاته وقد انحنى على منضــدة المطبخ ٠٠ وأمسك بيمناه ابرة وابور ، وبيســاره ورقة مشتعلة ، وانهمك بكليته فى تسليك وابور الجاز ٠

ووقفت أرقبه وهو يضع سن الابرة فى ثقب الموقد ثم يرفع السن فيندفع الدخان بشدة من الموقد ويمد يسراه بالورقة المشتعلة فاذا بالموقد يتأجج ويتوهج ، وتندفع منه النيران قوية شديدة ٠

ووقف عم شحاته يرقب الموقد وهو يدلك يديه فرحا ٠٠٠ ثم نظر الى الموقد ، وهز رأسه ، وقال يخاطب الموقد فى شىء من الشماتة :

ـ جنس كلب ٠٠ لا يجدى معك غير الوخز والشك !

ولم أستطع أن أكتم ضحكتى فاندفعت مقهقهــا ٠٠ والتفت الى الرجل مذعورا ، فلما تبيننى أقبل على يعانقنى فى شوق شديد ويقول مرحبا :

ـ أهلا ٠٠ أهلا بالذى يظهر فجأة من باطن الأرض ٠٠

ـ الذنب ذنبك فقد تركت الباب مفتوحا على مصراعيه ولو سطا على الدار لص ، لسرق الدار وأنت لا تدرى ·

ـ الذنب ذنب الخادم ·· فقد ارسلته يبتاع لى حزمة بقدونس فلم يغلق الباب خلفه ·· ما علينا ·· ربنا يستر ·· كيف حالك ؟ ·· وحال الوالد والوالدة ؟ لقد طالت غيبتكم حتى ظننا أنكم نسيتمونا ·

ـ نحن ننساكم ؟ ·· ننسى عم شحاتة ؟ حاشا لله ·

وصمت برهة كان الرجل يضع فى خلالها احدى الحلل الملأى بالماء فوق الموقد ، فأردفت متسائلا :

ـ ولكن لم هجرت حجرتك ·· حجرتك العتيدة ؟ ·· لقد رأيتها خرابا بلقعا !

ـ نقلت الى داخل الدار ، بعد وفاة المرحومة ، فهم فى حاجة الى ، وان كنت لا أظن أننى أستطيع أن أعوضهم عن قلامة ظفرها ، ولكننى أحاول ، وهذا كل ما أملك ·

وبدت لى فى صوته رنة أسى يحاول الرجل عبثا أن يخفيهـا ، فقلت له :

ـ رحمها الله وأسكنها جناته ·

وهز الرجل رأسه ببطء وقال :

ـ لا شـك الا أنه فاعل ·· فمن غيرها أحق بالرحمة ؟ ولمن سواها جعلت الجنان ؟

ومد الرجل يده فأمسك بمقعد فى ركن المطبخ دفعه الى قائلا :

ـ هل لديك مانع من أن تجلس معى هنا ، حتى انتهى من مهمة المطبخ ! ؟

ـ مانع ؟ هل نسيتنى ؟ ! ·· هات بعض هذا البطاطس أعاونك فى تقشيره ·

ودفعت الكرسى جانبـا ، واقتربت من المنضدة .. وامسكت بسكين ، وبدأت فى تقشير البطاطس الملقى على المنضدة .

وامسك الرجل بالطماطم ، واخذ فى وضعها فى المصفاة ثم بدأ مهمة العصر قائلا :

ـ اياك أن تجور على البطاطس .. خفف القشرة قدر المستطاع

ـ من علمك البخل يا عم شحاتة ؟ .. لقد كنت رجلا كريما .

ـ الكرم شيء والعمل شيء آخر .. لو كان هناك من سياكل القشر لما نصحتك بأن تجعله رقيقا .. ما الفائدة فى الاسراف اذا لم يكن هناك من ينتفع باسرافك ؟ .. واذا كان الاسراف سيذهب مع الريح ؟

ـ حكمة جديدة .. ستتوارثها الأجيال القادمة : عم شحاته ، وقشر البطاطس .

وانتهى الرجل من تصفية الطماطم ، ورايته يغسل اللحم ثم طلب منى معاونته فى تقطيعه .

وامسكت اللحم أمامه ، وأخذ هو يقطعه بالسكين .. ونظرت الى وجهه فبدا لى أن السنين الأخيرة قد اثقلت كاهله ، وانهكت قواه ، وانها قد دفعته الى الهرم بخطوات حثيثات سراع ، فاطفات بريق عينيه ، وحنت ظهره .. وقلت له متضاحكا :

ـ هرمت فجأة يا عم شحاته ! .

ـ لقد كنت فى صراع مع الزمن .

ـ ومن كسب ؟

ـ انا ...

ـ لا أظن ! ..

ـ ولم ؟

ـ هذا الهزال ، وهذا الوهن .

ـ آثار بسيطة للمعركة .. خدوش ورضوض .. لا اقل منها !!

ـ وماذا أصاب الزمن ؟ •
ـ هزيمة منكرة : ارتد عنى وعنهم •• ألا تراني سليما معافى ؟ ! ألا تراني أطهو وأتحدث ؟ لقد صدمت فى بادىء الأمر ، صدمنا جميعا ، ولم نكن نفعل الا البكاء ونقول مع الحكيم الذى سألوه ـ لم تحزن مع علمك بأن الحزن لا ينفع ؟ ـ كفى حزنا أن الحزن لا ينفع ، ولكنى كنت أول من تجلد ، ووقفت على قدمى وكلت للزمن الضربة تلو الضربة •• فتركت حجرتى ودخلت الدار ونزعت عنها السواد ، وحاولت جهدى أن أبدد سحب الحزن المعتمة التى حطت بها ، وضحكت وقلبى باك موجع •• وأخذت بيد الأولاد والرجل • وحاولت جهدى أن أحل محل الراحلة الجميلة الكريمة ، ولا أظننى الا قد أرضيتها فى قبرها •• كما أرضيتها فى حياتها •

وصمت الرجل وأنعمت النظر فى وجهه الأسمر الذى ملأته التجاعيد •• وقد علاه وجوم وتجهم ، وكأنما أثارت الذكرى كامن شجنه وهاجع حزنه ، ووجدت السؤال القديم قد قفز الى ذهنى فجأة •• السؤال الذى أعيتنى الاجابة عنه : من كان الرجل •• وما صلته بالأسرة ؟• وماذا يضطره الى أن يفعل من أجلهم ما فعل ؟• أكل هذا نظير المسكن والمأكل ؟• لا أظن •• فلو أنه قد وجه جهده فى أية ناحية من نواحى الحياة لكان خيرا مما هو الآن ألف مرة ولأصاب ثراء ومكانة ، بل لأضحى خيرا من صاحب الدار نفسه •

ماذا يجبره على تلك القناعة ، وعلى أن يشد نفسه الى الأسرة كأنه جواد شد الى عربة ؟ ماذا يجبره على أن يعمل للرجل ولبنيه خادما •• وعلى أن يحاول أن يعوضهم عن السيدة الراحلة خير عوض ؟

وأحس الرجل أنى أمعن فيه النظر ، فرفع الى عينيه • ولم أشك في نظراته أنه قد قرأ ما جال بخاطرى فقد قال فى تؤدة وبطء :

ـ سل عما يحيرك · سل يا بنى · سل ذلك السؤال الذى أعيتك اجابته ·· من أنا ·· ومن ألقانى فى هذا الجحر أقضى فيه عمرى ! من شدنى الى هـؤلاء القوم أفنى من أجلهم حيـــاتى وأقتبس من سعادتهم سعادتى ومن هنائهم هنائى ·· سلنى يا بنى ·· فبى حاجة الى الاجابة ·· بى حاجة الى الافاضة ·· سلنى وأتح لى فرصة الحديث ، فقد أجد فيه شيئا من المتعة والعزاء ·

وأدهشنى قول الرجل ·· وخيل الى أنه يغلق صدره على أمر مرير وحزن دفين ولوعة مكبوتة · ومددت يدى وربت على كتفـه وهمست اليه :

ـ تجلد ، لا تجعل الزمن يشمت بك بعد أن صرعته ·

وتضاحك الرجل ، ثم أسقط اللحم فى القـدر الموضوعة على النار ، وجذبنى من يدى فأجلسنى على المقعد وسألنى :

ـ أأصنع لك قدحا من القهوة ؟ ·

ـ لا ضرورة لذلك · أنا لست غريبا · هل نسيت أننى من أهل الدار ؟

وساد الصمت بيننا برهة كان الرجل يعطى فى خلالها ـ نفسا ـ للموقد ·· ثم أخذ يتشاغل بتنظيف المنضدة ·

وقلت له أستحثه على الحديث :

ـ تكلم يا عم شحاته ، أم ترى لا بد لى أن أسألك حتى تجيب ؟ أجب عن ذلك السؤال الذى طالما حيرنى ·· قص على قصتك ·

ـ هى قصة قديمة ·· تبدأ بمحسوبك وهو طالب فى الأزهر ، أو على حد قولهم ـ مجاور ـ غلبان ، لا يملك من حطام الدنيا سوى كاكولة ، وعمامة ، ونعل ، بلغ من العمر أرذله ·· وما زال يرجو له طول البقاء ، وصندوق خشبى ، حوى بعض الهلاهيل وخرج

ملآن بالبتاو الجاف · وهو المرتب نصف السنوى الذى يرسله لى الأهل من البلد ·

وكان يشاركنى مسكنى وقتذاك ـ وهو عبارة عن حجرة فى سطح منزل بالدراسة ـ زميل وخل وفى ، تعاهدنا فيما بيننا على أن نتقاسم السراء والضراء ·· أو على الأصح الضراء والضراء ، فما أظن زمننا قد كرم معنا فوهب لنا السراء مرة واحدة ·

كنا نتقاسم البتأو الجاف والجبن القريش · كنا نتقاسم الحصير تحتنا ، والغطاء الرث فوقنا · كنا نتقاسم نجـوم السماء وسـهر الليالى ·· كنا نتقاسم الشاى الأسود وألفية ابن مالك ، وأخيرا كنا نتقاسم صياح الصبية يعدون خلفنـا فى الطرق والحوارى : « يا مجاور ، عمتك دابت ، م السلطه والفول النابت » ·

كل هذا تقاسمناه ، وما أظنه من السراء فى قليل ولا كثير ، ومع ذلك فقد كانت نفسانا تفيضان غبطة ورضا ·· وروحانا ترتعان فى سعة وبحبوحة ، سقى الله الشباب يا بنى ، الشباب والأمل المنشود ، فقد كان أصل الرضا ومبعث الغبطة ·

كنت أضحك من كل شىء ، ومن لا شىء · وكنت أحس كأن نفسى تتوثب وقلبى يتحفز ·· كنت أرجو وآمل ، وكنت أنتظر شيئا جميلا ، ولا شىء يمتع الانسان كانتظار المتعة ، فانتظار المتعة أجمل من المتعة نفسها ، وتوقع النعيم ألذ من الاستغراق فيه ·

كنت نفسا مرهفة وقلبا حساسا وروحا ـ كما يقولون ـ خاما تتوقع متعة مجهولة ، تجسدها لها ضحكة ناعمة تسمع فى سكون الليل ، أو صوتا جميلا يسمع من وراء نافذة مغلقة ·

كنت خالى القلب ، ومع ذلك فما أظن القلب كان فى شغل فى أية فترة من فترات العمر كما كان فى ذلك الوقت · كان القلب أشـبه بانسان يستعد لعرس ، فهو دائم اليقظة ، دائم اللهفة ، دائم الشوق

والحنين ·· الى من ؟ ·

لا يدرى ·

فهو ما زال ينتظر ويتمنى ·

كنت أعشق النجوم والسماء والنسيم والطيـور ·· كنت أنظم القصيد في الغزل والتشبيب ، وكنت دائم الترنم والشدو ·· وكنت مغرقا نفسى فى متعة حب ·· بلا حبيب أو بحبيب لم يظهر فى أفق الحياة بعد ·· حبيب قد ينم عنه عطر عابر ، أو جسد ملتف فى ملاءة سوداء ، أو ثغر باسم خلف البرقع ·· حبيب انعكست صورته فى القلب قبل أن تبصره العين ·

وأخيرا يا بنى بدا الحبيب ·· الذى لا يمكن أن يكون هناك حبيب سواه ·· والذى طالت لهفة القلب عليه ، وحنين الفؤاد اليه ··· الحبيب الذى كنت أتمنى وأنتظر ·

كان أول ما عرفت منها ضحكة بعثتها مع النسيم فى هـدوء الليل ·· ضحكة أنطلقت من فيهـا فاستقرت فى قلبى ·· وتردد صداها فى صدرى فملأتنى نشوة وافعمتنى طربا · ومرت بى الليالى وأنا أعيش على الضحكة ·· أميزها من بين ألف ضحكة ، وأعرف منها صاحبتها اذا حملها الى النسيم . كما قال الشاعر :

هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برياك

ورأيتها بعد ذلك ، بدمها ولحمها ، وفتنتها وسحرها ، تماما كما كنت أتوقع أن أراها ، وكما كانت تنعكس صورتها فى قلبى

كانت تقطن فى دار مجاورة ، ورأيتها وقد خرجت من الدار متشحة بالحبرة وقد تلألأت عيناها خلف البرقع الأبيض ، وكنت أسير مع صاحبى فأصابنى ارتباك جعلنى أتعثر فى الكاكولة واكاد ارتمى على وجهى ·

وضحكت ·· ضحكت على طبعـا ، ووصـلت الى مسامعى

ضحكتها ·· وكانت فى هذه المرة وجها لوجه · فأصابتنى اصابة مباشرة ، لم أفق منها الا وقد اختفت صاحبتنا عن عينى وسط زحام الشارع ·

وبدأت بعد ذلك أشاهدها وراء نافذة المشربية فى كل ذهاب لنا واياب ، وأخذت آمال القلب تتحقق شيئا فشيئا عندما أدرك أن صاحبه قد بدأ ينتظر أوبته وروحته ·

وأنت تعلم يا بنى قدرة الشباب على تشييد قصور الأمانى وبراعته فى أن يجسم لنفسه الآمال والأحلام ·

وهكذا لم تمض بضعة أسابيع ، حتى فزت من صاحبى بابتسامة وسلام ·

هل جربت الحب ؟ ·· هل ذقت انتصار الحب ؟ · هل تعرف ما معنى أن يبتسم لك الحبيب ويشعرك أنه ميزك من دون خلق الله أجمعين ·· ؟ هل تعرف كم تساوى تلك الابتسامة بالذات ؟

ابتسامة ·· أى انفراج شفتين ، قد يمنحها صاحبها طول اليوم لمئات الناس فلا تعنى شيئا بالنسبة لهم ·· ثم يمنحك اياها ·· فتكون لك كل شىء : تكون النعيم ·· وتكون الحياة ·· ويكون انفراج الشفتين بالنسبة لك كأنه انفراج أبواب الجنة ·

ومرت الأيام ·· وأنا مغرق نفسى فى خضم من السعادة ، لا أكاد أبصر شيئا حولى ·· سوى متع براقة خلابة ·

ولقيتها ذات مرة ·· وحدثتها ·· فزدت بها وجدا وولها ·· ووجدت فى نفسها رقة وعذوبة ·· وكان اللقاء خلسة فى جوف الليل للحظات خاطفة ·· مرت كأنها البرق ·

وبدأت أرسم فى ذهنى مستقبلا حافلا ، وجعلت أشحذ من همتى ·· وصممت على أن أكون امرأ ذا شأن ·

ووضعت لنفسى الخطة التى توصلنى الى أسمى المناصب والتى تنتهى بى الى أن أكون « شيخ الجامع الأزهر » ٠

كل هذا من أجلها ٠٠ ولم أكن أحس وقتذاك أنه أمل بعيد على ، أو شىء كثير عليها ، لقد أعطانى حبها قوة دافعة كانت تهيىء لى فعل المعجزات ٠

★ ★ ★

وصمت عم شحاته ، ووجدته يمد يده الى الرف فيأخذ من فوقه « بصلتين » ينهمك فى تقشيرهما وتخريطهما ، ثم سألنى قائلا :

ــ هل تضايقك رائحة البصل ؟

وســاءنى أن يهبط الرجل فجــأة من ذروة الحب الى حضيض البصل ، وتمنيت لو غادرنا المطبخ ليكمل لى القصة فى جو خال من الماديات التافهة : بصل ، وجاز ، وطماطم ، الى جو شاعرى يلائم حديثه ٠

ولكنى خشيت أن أضايقه ، فقررت أن أحتمل البقاء ، وأن أغض الطرف عما يزعج شاعريتى من لوازم المطبخ ٠

وانتظرت أن يعاود الرجل تتمة القصة ، ولكنى وجدته قد بدأ يدندن كأنما قد انتهت القصــة ، واستطعت أن أميز من دندنته : « ما كانش كده طبعك يا غزال » ٠ وأصابنى منه غيظ شديد ، وقلت أستحثه على تتمة القصة :

ــ عم شحاته ٠٠ هل يمكنك أن ترجىء عتابك للغزل بعض الشىء حتى تتم قصتك ٠ لقد قلت ان حبك أعطاك قوة دافعة تهيىء لك فعل المعجزات ٠

ــ وأى معجزات ! ٠

ــ هل أضحيت شيخا للجامع الأزهر ؟

ــ وهل هذه معجزة ؟

المعجزة هى أنى أضحيت ما أنا عليه ، فلا أظن وصولى للمنصب كان شيئا كثيرا على ·

قلت لك اننى انهمكت فى الدرس والتحصيل وفى وضع الخطط للوصول الى قمة المجد حتى لقيتهـا مرة ثانية · وكان اللقاء لمدة أطول ، مدة هيأت لنا تجانب أطراف الحديث ، وتمنيت بعد اللقاء ·· لو لم يحدث اللقاء أبدا ·

فقد حطم أملى ·· وذهبت معه أحلامى هشيما تذروه الرياح ، وتركنى فى ظلمة اليمة وحلكة معتمة ·

ماذا حدث ؟

لا شىء ··

لا شىء أكثر من أن صاحبتى أقبلت على فى حرارة واخلاص ، وحدثتنى كما تحدث أخلص الأوفياء وأصدق الأصدقاء ·· وأخبرتنى أنها تحس اطمئنانا الى وثقة بى ، وأنها لم تجد انسانا يمكن أن تركن اليه سواى ·

ثم انبأتنى أنها تحب صاحبى !

ـ صاحبك !! صاحبك من ؟

ـ صاحبى الذى يسكن معى ·· والذى قلت لك عنه اننا كنا نتقاسمَ الضراء معا ·· فلما حلت بنا السراء ·· كانت السراءمن نصيبه ·· ما علينا !

لقد القت الفتاة قولها الى ببساطة واخلاص وطمأنينة كما تلقيه الى أمها أو الى صديقة لها !

وأحسست بقلبى يدمى ، وبقيت مدة طولة شارد الذهن ، محملقا فى الظلمة ، لا أكاد أعى مما تقوله شيئا ، حتى نبهتنى الفتاة ·· وافترقنا بعد برهة ·· وبعد أن سألتنى أن أبلغ تحيتها الى صاحبى ·

ولم أنم ليلتها ·· بل رقدت خارج الحجرة أحملق فى السماء

حتى مطلع الفجـر ·· ثم تسـللت بنفسى خارج الدار أضرب فى الطرقات على غير هدى ·

وساءلت نفسى فى مرارة : لم هذا الخلط من القـدر ؟ ما ضره لو جعل الفتاة تحبنى أنا الذى لا أبصر فى حياتى سواها ، والذى أجد فيها بارقة تهدينى سواء السبيل ؟ !

ما الحكمة فى أن يجعلها تحب صاحبى الذى لا يكاد يحس بها ؟

بما تراه يفضلنى ·· وكلانا يكاد يكون نسخة ثانية من الآخر ؟ !

وتملكتنى ثورة عنيفة ·· على كل شىء ·· على الحياة ، وعلى الناس ·· وعلى القدر ·· وأحسست بايمانى يتبدد ·

وعدت فى نهاية اليوم محطم القوى ، مهدم الأعصاب · وأقبل على صاحبى يسألنى عما بى ، وأين كنت طول اليوم فلم أجبه ·

وهل أستطيع أن أقول له ما بى ؟!

ومرت الأيام ، فبدأت ثائرتى تهدأ ، ولكن حبى لم يهدأ · على النقيض · لقد زاده الاحساس بالحرمان ، والشعور بالخيبة تأججا ، وانتهى بى التفكير الى أمر عجيب ·

لقد أقنعت نفسى بأن من العبث أن أحاول الكف عن حب الفتاة فلقد تشعب حبها فى قلبى بحيث أضحى من العسير اقتلاعه الا اذا اقتلع القلب نفسه ، ولقد منحتنى الفتاة ثقتها وصداقتها ، واطمأنت الى ، وأفضت الى بدخيلة قلبها · لم لا أعتبر هذا نوعا من الظفر ؟··

لم لا أكرس نفسى لسعادتها وأحاول أن أحقق لها أمانيها ؟

اذا كنت أحبها حقا ·· ولم يتح لى القدر أن أكون أنا نفسى سبب سعادتها ·· فلم لا أعاونها أنا على الظفر بالسعادة !

لم لا أكون عونا لها على الحياة ؟

لم لا أهب لها نفسى ؟

أم لا بد لذلك من أن تهب لى نفسها ؟

لم لا أحاول أن ألتمس سعادتى عن طريق سعادتها ·· وهنائى عن طريق هنائها ! ؟

وهكذا أقنعت نفسى يا بنى · وبتلك الطريقة فقط استطعت أن أضمد جراح قلبى ·· وأن أهيىء له ظلالا تقيــه حرقة الطريق ، ووحشة السفر ·

وأنبأت صاحبى بأن الفتاة تحبه ، وظللت به حتى أقنعته بحبها ، وكانت هذه أول خطوة لى فى طريقى الجديد ·

وهكذا بدأت أسير فى الحياة بأمل واحد ، هو اسعادها · أتذكر ما قلته لك من أننى بدأت أنهمك فى الدراسة ، وأرسم الخطط لكى أصل الى أسمى المناصب ، حتى أهب لها زوجا تستحقه ؟

أتذكر ما قلته لك من أن حبها أعطانى قوة دافعة تهيىء لى صنع المعجزات ؟

لقد كانت القوة ما زالت بى ، وما زالت بى أيضا الرغبة فى أن أهيىء لها زوجا تستحقه ، ولكنى لم أجد هناك ما يلزم لأن أرسم الخطط لنفسى ·· فبدأت أرسم الخطط له ·· وبدأت أستحثه على الدراسة والتحصيل ·· وصممت على أن أفنى فيه ، وأن أجعل منه لها شيئا مذكورا ·· حتى أهب لها الزوج الصالح الذى تستحقه ·

ولقد صنعت المعجزات يا بنى ·

ما رأيك فيه الآن ؟

من ؟

ــ صاحب الدار !

ــ أهو نفسه صاحبك ؟

وهز عم شحاتة رأسه ·· بالايجاب ، وعدت أسأل :

ــ وهى ؟

ــ أجل ، هى نفسها الراحلة الكريمة ·

وساد الصمت بيننا برهة ، ثم عاود الرجل حديثه :

ـ لقد صنعت المعجزات يا بني ٠٠ لقد كان من السهل على أن أجعل من نفسي شيئا مذكورا ٠٠ أما منه فقد كان الأمر يتطلب شيئا من الجهد ٠ لقد دفعته أمامي ، أو قل جررته كما يجر الحمار العربة٠ ألفت له الكتب ودفعت به الى أرفع المناصب ، وصنعت من أجله ، أو قل من أجلها كل شيء ، حتى صار الى ما هو عليه ، وجعلت كل همي فى الحياة رعايتها ورعايته من أجلها ٠

وأنزل عم شحاته القدر عن الموقد ، ووضع طاسة التقلية وأخذ فى قدح السمن ٠

وأخذت أفكر فى هذا الرجل العجيب ٠٠ وأسأل نفسي : هل يمكن أن تكون فى دنيانا أشياء كهذه التى قصها على ؟

وكأنما أدرك الرجل ما جال بذهني ٠٠ فالتفت الى قائلا :

ـ لا تظن يا بني أنى فعلت شيئا كثيرا ٠٠ بل لا تظنني فعلت شيئا ألبتة ٠٠ فليس فى فعلى أى نوع من أنواع التضحية ، وثق عندما أقول هذا أنى لا أقصد به التواضع أو انكار الذات ٠٠ فكل ما فعلته هو أنى أسعدت نفسي بطريقة لم يعتدها الناس ٠٠ أو أنني حاولت أن أسلك طريقا الى السعادة ٠٠ فلما وجدته مغلقا سلكت طريقا مجاورا انتهى بى الى نفس ما كان سينتهى اليه الطريق الأول ٠٠ أو على الأصح ٠٠ الى خير منه ٠

ماذا فعلت يا بني ؟

لقد عشت مع من أحببت طول عمرى ٠٠ لقد هيأت لقلبى ظلالا تحميه من وهج الحياة ٠

ماذا يضيرني اذا كان سواى قد حمل عني المظلة التى منحتني الظلال ؟ ماذا يضيرني ٠٠ اننا تشاركنا فى الظلال سويا ! ؟

ماذا كان يمكن أن أناله من السعادة أكثر مما نلت ؟

هل كان ينقصنى سوى تلك اللذة الجنسية التافهة السريعة الزوال ؟

لقد عشت معها فى دار واحدة فما فارقتها قط · وكنت أحس أن أولادها أولادى ·

ولقد منحتها كل ما استطعت من سعادة وهناء ·

هل ترانى فعلت شيئا كثيرا ؟ ·· هل ترى فى فعلى أى نوع من انواع التضحية ؟

وفكرت لحظة ثم أجبته ببطء :

ـ ليس أكثر من تضحية كل جندى مجهول ·

ـ أبدا يا بنى ! حتى هذا لا أوافقك عليه ·· لقد كان ذلك هو ما أحس به حتى أشرفت على الموت ، فأنبأتنى أنها تعرف كل شىء ، وأنها تحس أنها مدينة لى بكل شىء ، وأن ما فعلته أكثر من أن تستطيع رده ·· ولا حتى بالحب ·· ثم سألتنى أن أعتنى بالأولاد وبالرجل · وأنبأتنى أنها ستنتظرنى فى السماء ·· لنبدأ معا أمرا جديدا ·· ثم ذهبت وخلفت بقولها ظلالا أخرى ·· تحمى القلب من حرقة الفرقة ·

رجل عاقل

سيدى العزيز :

أية سخرية من سخريات القدر تلك التى تدفعنى الى الكتابة اليك ٠٠ أنا الذى ما رأيت فى حياتى مخلوقا أشد منك تفاهة ، ولو كان بيدى الأمر لصرفتك عن الكتابة الى مهنة أخرى ، اشفاقا عليك ورعاية لمصلحتك ٠

حب !!٠٠ تصور أن مهنتك يا سيدى كاتب حب !! وأن مهنتك فى الحياة حض الناس على العشق ٠٠ انك لا شك انسان تافه ٠٠ ليس لرجل مثلى عاقل محترم من رجال المال والأعمال فسحة للتفكير فى تلك التفاهة التى تنشرها على الناس فان من العبث أن نصرف أذهاننا الى ذلك الحمق الذى تسميه حبا ، وأن نجعل منه شيئا يسيطر على مشاعرنا ٠ صدقنى فاننى أضحك كثيرا من أولئك المجانين ـ وأنت واحد منهم ـ الذين يؤمنون بأن « الحياة الحب ، والحب الحياة » ٠

وحاشاى يا سيدى أن ازعم أن استخفافى لك ناتج عن قراءة

شيء مما تكتب فما حاولت ذلك قط ٠٠ لأني أحس في نفسي أنني أرفع من أن أنزل الى قراءة تلك الأقاصيص ٠٠ وأعقل من أن أجعل من سخافتك حتى مجرد وسيلة للتسلية بله التثقيف والفائدة ، وكان يجب ، والأمر كذلك ، ألا أعرف عنك شيئا ، وألا أحس نحوك بشيء كأي مخلوق لا صلة لي به ، ومع ذلك فقد عرفتك ٠٠ عرفتك عن طريق ابني الطالب بالجامعة ، أو على الأصح ، الطالب في مدرسة قصصك ، فقد كان يقبل عليها بشوق ولهفة ٠٠ ويقرؤها مثنى وثلاث ورباع ، ويحاول أن يشيد بك أمامي وأن يظهرك في صورة العباقرة الفنانين ، فكنت أهز رأسي في صمت ، وكنت أتمنى لو كان أكثر تعقلا وادراكا لحقائق الأمور ٠٠ كنت أتمنى لو كان مثلي رجل عمل ، فيقبل على دروسه ويسيغها كما يسيغ سخافاتك ، ولكني مع ذلك لم أكن معه جامد العقل ، فلم أحاول زجره ، وكنت أقول لنفسي أنه ما زال صبيا ، فاذا ما بلغ مبلغ الرجال فسيكون أكثر رزانة ، وينظر الى الحياة ويفهمها كما أنظر اليها وأفهمها ٠

وهكذا يا سيدي رأيتك من خلال ابني ٠٠ ولم أشك وقتئذ أن قراءك ــ ان كان لك قراء ــ كلهم من هذا النوع المرهف الحس ، المصطخب المشاعر ، ولم أجد ضررا في أن يكون ابني أحدهم ، وأن يمر بهذا الدور الذي يمر به كل انسان ، دور التلهف في الحب والسكر بنشوة الهوى ٠

أجل يا سيدي ! ٠٠ لم أجد في شغف الصبي بأقاصيصك عجبا ٠٠ بل لم أجد في اندماجه ببعض وقائع الحب سوءا ولا حرجا ، فقد كنت أرى أن أعامله معاملة رجل لرجل ، وكنت أرى أن ذلك الشيء الذي يسمونه « الحب » انما هو شيء طبيعي في مثل هذه السن ، ولهذا لم أحاول أن أضيق عليه الخناق بطريقة تدعوه للتذمر أو التبرم ، بل كنت أسوق له النصح كما ينصح الصديق صديقه ٠

وفى ذات يوم · بدا لى الفتى واجما شاردا على غير طبيعته ، ولم ألق الى الأمر كثير اهتمام ·· وقلت لنفسى : انه ضيق طارىء سرعان ما يزول ، ولكن مضى يوم ويومان وهو مستمر فى صمته وحزنه ، لا يتحدث الى أحد ، فاذا ما سئل بدا كمن هب فجأة من نوم طال استغراقه فيه ، ورأيته يعاف الطعام حتى انه لا يكاد يأكل ما يقيم أوده ·

واذا علمت ، يا سيدى ، أن هذا الابن هو كل أملى فى الحياة ، وأن أمه ماتت وهو فى طفولته · فجعلت له من نفسى بعد موتها أما وأبا ، وأنه ما كان يؤلمنى فى الحياة شىء كألم يصيبه أو مرض يلم به ·

اذا علمت هذا ، واذا كان لك ابن تحبه ، فلا شك أنك تستطيع أن تدرك مدى ما تركت حالته هذه من ذعر فى نفسى وضيق بين جوانحى ·

وحاولت أن أتبين منه سبب ما به ·· فما أجابنى بأكثر من « لا شىء » ·

وحاولت أن أسرى عنه ، وأن أبعده عن جو الكتب والدراسة ، وأن أذهب معه فى بعض نزهات ، كنت أعرف أنه مشغوف بها ، ولكن كل هذا لم يخفف من وجومه واطراقه ·

وساءلت نفسى : أيمكن أن يكون ما به أثر حب وصدمة عشق ؟ · لقد قلت لك اننى شديد السخرية بمثل هذا التفكير ، ولذا أحسست بضيق شديد وكرهت أن يكون ابنى من هذا النوع العاجز الواهن ، القصير التفكير ، الضعيف الادراك ·

وكان من العبث أن أقف هكذا وأنتظر ، وكان لا بد لى أن أفعل شيئا ·· فجلست اليه ذات مرة · وأخذت أتبسط معه فى الحديث وأمتدح له عبقريتك ، وأقص عليه وقائع غرام وقعت لى فى صباى

واقول له كما يقول المجانين : ان الحياة الحب ·· والحب الحياة ··
فرايت الفتى ينصت الى وقد بدت عليه السكونة والهدوء ، واحس نحوى بالطمانينة وبدا يكشف عن خبيئة صدره ، ويفضى بدخيلة نفسه ·

لقد قص على قصة حبه بالتفصيل ، ولست انوى أن أصدع بها راسك فهى قصة كل عاشق ·

لقد علمت منه انه يحب فتاة تقطن فى الدار المجاورة ، واذكر انى رايتها بضع مرات قبل أن يحدثنى عنها ، وكنت أعرف انها تكبره على الأقل بسبع سنوات أو ثمان ، ولذا لم اجد غرابة عندما انبأنى فى حديثه أن مصدر لوعته هو أنها تهمله اهمالا تاما ·· بل لا تكاد تحس له وجودا · فقد كنت أرى ذلك أمرا طبيعيا ··· فاغلب ظنى انها وهى فتاة فى السابعة والعشرين او الثامنة والعشرين ، لم تكن لتبصر فيه أكثر من صبى يلهو ، ولم يكن ليخطر لها على بال ، وهى التى تتوقع خطبة وزواجا من رجل محترم ، أن تشتبك مع مثله فى عبث أطفال ·

وحاولت طبعا ان أسوق له النصح ـ كوسيلة ابتدائية ـ فقلت كل ما يمكن أن يقال فى مثل ذاك المجال ·· قلت له انها اكبر منه ، وانها لا تستحق أن يندفع فى حبها مثل ذلك الاندفاع ·· قلت له أن الامتحان قد قرب ، وان دروسه أولى بالتفاته ، وان أمامه المستقبل زاه وزاهر ، وانه يجب أن يكون رجلا فيكف عن ذلك التخاذل · قلت له كثيرا من هذا القبيل ·· فكنت فى نصحى كالنافخ فى رماد أو الصارخ فى واد ، وادركت أنه لم يفهم من نصحى كلمة واحدة · فقد شرد عنى بذهنه مذ بدأت النصح ·

وتركته بضعة أيام ··· عل النصح يهديه فيهتدى ··· أو لعل الله يهيىء له من أمره رشدا ، ولكن الأيام لم تزده الا سوءا ·· حتى

علمت أنه انقطع عن الذهاب الى كليته ، وأنه يقضى يومه شاردا بين الحدائق والحقول ·· أو بين الصحارى والرمال ·· فلا يعود الى الدار الا وهو متهوك القوى ، محطم الأعصاب ، وهو الذى لم ينقطع عن دراسته يوما واحدا ، والذى لم يرسب قط فى امتحان أداه ، بل كان الأول دائما ·· تصور يا سيدى حالى وأنا أراه كذلك ثم أقف أمامه مكتوف اليدين لا أملك له شيئا ؟ !

ومع ذلك فقد كان على أن أفعل شيئا ·· انه ابنى يا سيدى ·· انه كل ما لى ·· انه فلذة كبدى ·· انه أنا ! ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ أنا كما قلت لك رجل رزين محترم ، يعتبر جنون الحب خرافة ، ويرى « قيســـــا » وغيره من مجانين العشــاق أوهاما من خيــال الشعراء ، ولكن هأنذا أرى ابنى قد صار أحدهم ، بل شرا منهم · فكيف أنقذه ؟ أأخطبها له ؟ ولكن كيف أزوج طفلا مثله ، وأحمله أعباء لا طاقة له بها فيصبح وله زوجة وأولاد ·· ثم يتبخر الحب بعد بضعة أشهر ، ويبقى العبء طول العمر ·· فيلعنني مدى الحياة ؟

ثم ماذا يغريها هى بقبول زواج من صبى مثله ، وهى فى تمام وعيها وعقلها ؟

ماذا أفعل معه ؟ ·· أأرحل به بعيدا حتى ينسى حبه ؟ ·· ولكن هل يقبل هو ذلك ؟ ·· لا أظن ! ··

وخيل الى أن هناك طريقا واحدا يمكن أن يؤدى الى شىء ، طريقا لو قيل لى أن أحدا قد سلكه ، لقلت انه لا شك مجنون ، ولكنى تحت هذه الظروف لم أتردد فى أن أسلكه فقد كنت أتلهف على بارقة أمل ·

كان هذا الطريق هو أن أذهب بنفسى الى الفتاة ، وأقص عليها القصة ، وأخبرها بما وصلت اليه حالة الصبى ، وأطلب منها أن تتولى هى علاجه ، وتقربه بعض الشىء ·· حتى يخف ما به ، ويعود الى نفسه والى دروسه · ولعل الزمن بعد ذلك أن يبرئه ، أو لعله أن

ينصرف الى أخرى تشغله عنها · من يدرى ؟ على أية حال فأى شىء خير بلا شك مما هو فيه ·

وذهبت الى دارها ـ دون أن أخبره طبعـا ـ واستقبلتنى هى فأنبـأتها أنى فلان الذى يقطن بجوارهم فرحبت بى وأجابت أنهـا أسفة لأن أباها غير موجود ·· فقلت انى أريدها هى ·· فبدا عليها شىء من الدهش ، ولكنها أجابت بأدب أنها على استعداد لأية خدمة ·

وقصصت عليها القصة ، وحاولت جهدى أن أوضحها لها من الناحية التى ابصرها بها ·· وشرحت لها ما تستطيع هى أن تؤديه لى من جميل لن أنساه مدى الحيـاة ، وبدت على الفتاة دهشـة شديدة ·· لم أستنكرها أنا منها ، فقد كنت أعلم أن المسألة برمتها مسألة عجيبة ، رأيتها تطـرق وتستغرق فى صمت عميق ، فأخذت أرقبها بنظرة فاحصة حتى أتبين تلك المخلوقة التى أحدثت بابنى حالة جنون ·

أجل ·· لقد أخذت أتمعن فيها وهى مطرقة صامتة ·

والى هنا ، ولتسمح لى أن أتمهل ، وأتمهل ، فمن هنا تبدأ قصتى الحقيقية ، ومن هنا كان يجب أن تبدأ رسالتى ·· لقد قلت لك انى قد سبق لى رؤية الفتاة بضع مرات ، ولكنها كانت كلها سريعة عابرة لا تسمح لى بتمييزها · أما فى هذه المرة فقد أبصرتها جيدا ·

أتعرف يا سيدى ذلك النوع من النساء الذى لا يبهرك منه بريق ولا ضياء ؟ ذلك النوع الذى يمتاز بجمال هادىء ساكن يحس به القلب قبل أن تتبينه العين ·· والذى يزداد احساسك بفتنته كلما طالت نظرتك اليه ، والذى يتناسب تأثيره فى النفس تناسبا مطردا مع طول الجلوس اليه والحديث معه ، هل فهمت ما أقصـد ؟ انا لا أجيد فن الوصف ، ولكن يخيل لى مع ذلك أنك لا شك قد أدركت

ما أعنى ، ذلك النوع الدقيق الرقيق الذى يفيض عليك عذوبة كأنه نبع يتدفق من الجنة ، أو كأنه نور القمر فى ليل هادىء ساج ·

وأخذت أتأملها فى صمتها ، وتفكيرها ، وأنا أحس بكثير قلق حتى رفعت الى رأسها وقالت فى صوت هادىء :

ـ انى أفهم يا سيدى كل ما قلت ، وأدرك المسألة تمام الادراك ، وانى على استعداد لأن أقبل كل ما طلبته منى ·· اذا كنت ترى فى ذلك انقاذا لولدك ·

وأحسست بالتضاؤل أمام الفتاة ·· كما يحس الانسان بالتضاؤل أمام الآلهة ·· فقد نزل على ردها بردا وسلاما ، كيف لا وأنا الذى لو طردتنى من دارها واتهمتنى بالجنون لما وجدت فى فعلها عجبا ·· أليس مجنونا ذلك الذى يطرق دار جيرانه ليسأل ابنتهم أن تتولى علاج ابنه « التلميذ » وتعيده الى دروسه وتنقذه من حبها ؟ !

ولكن الفتاة كانت ذكية لبقة ·· ففهمتنى ولم تسخر منى ، وكانت كريمة شجاعة ، فلم تتردد فى أن تقدم على مساعدتى دون أن تجد فى ذلك حرجا ·· أترى الانسان يصادف فى حياته كثيرا من هذا النوع ؟ ·· لا أظن ·· فانها مخلوقة نادرة !! ·

ومرت بضعة أيام لم أدر ماذا حدث خلالها ، ولكنى أحسست فى نهايتها بمعجزة تحدث ·· لقد رأيت ابنى يعود الى نفسه ، بل الى أكثر من نفسه ·· رأيته يفيض بالأمل ، ويمتلىء بالحياة ، ويندفع فى دراسته ، ليعوض ما فاته بهمة مشحوذة وايمان قوى ·

لقد أنقذته الفتاة من كل ما به !!

ولست أدرى ما فعلت ، ولست أدرى كذلك أية نهاية يمكن أن ينتهى اليها ، ولكن الذى أدريه أن قلبى كان يفيض بالشكر ·· وأننى قد ملأتنى رغبة قوية لأن ألقاها لأزجى اليهـا امتنانى واعترافى بجميل صنعها ·

وفعلا لقيتها !!

لقيتها مرة ·· وثانية ·· وثالثة ·· وفى كل مرة انتحل لنفسى عذرا · ووجدت نفسى مضطرا الى التعرف بأبيها حتى يكون اللقاء مستساغا ·

لقد لقيتها مرة لأشكرها ، وانتهى الشكر ·· لم حاولت اذن أن القاها ثانية وثالثة ، ولم كانت بنفسى لهفة على لقائها فى كل حين ؟

اضحك يا سيدى ·· اضحك ملء شدقيك ·· اضحك من الرجل العاقل الرزين الذى كان يراك تافها ، فلقد أضحى أكثر منك تفاهة ·· اضحك يا سيدى فقد كنت أنا هذه المرة لا ابنى ! ·

أيمكن أن يكون هذا معقولا !! أنا الرجل الكهل المتزن الذى يظن ان قد فهم الحياة على حقيقتها ·· وانتهى من كل تلك السخافات التى تسمى حبًا ؟

كف عن الضحك يا سيدى فانى أستحق الرثاء والبكاء ، أتعرف ما كان عليه ولدى من الشرود والحزن واليأس ، لقد أصبحت على أضعاف أضعافه ·

كيف استطاعت التسلل الى قلبى الجامد المغلق ؟ لقد سلبتنى صوابى ، وأصبحت شيخا عاشقا !

أجل ! لقد أضحيت احمق مأفونا حتى لقد فكرت فى أن أتزوج الفتاة ، واندفعت فى حبى محاولا أن أجتذب قلبها ولكن عبثا حاولت ·· فقد كان قلبها مشغولا !! أتدرى بمن ؟ بابنى ! اجل ·· لقد انتهى الأمر بها الى حبه ! لقد دفعتها انا الى ذلك الحب ·· فجعلت من ولدى غريما لى ·

ماذا أفعل يا سيدى ؟ لقد كتبت اليك لأنى أود أن أخرج من صدرى بعض تلك الجمرات التى تتاجج فيه ·· ولأسالك كيف أنقذ نفسى ؟· اياك والنصح ·· فأنت أدرى الناس بقيمته لدى العشاق ··

اياك أن تقول لى اننى رجل كبير محترم رزين عاقل ·· وان من العبث أن أندفع فى حب لا فائدة فيه ولا طائل تحته ، وان من الحمق أن انازع ابنى حبه ·· اياك أن تقول لى ذلك ··فأنا أعلمه أكثر منك ولقد قلته لنفسى مئات المرات ، فلم يجد نفعـا ، ولكن ماذا يستطيع مخلوق مثلك أن يفعل لمخلوق مثلى ؟

ان الله وحده هو الذى يستطيع أن يفعل ، اللهم هبنى من لدنك رحمة ·

المخلص

· · · · ·

★ ★ ★

ولقد وهبه الله رحمة ·· ورحمة الله للانسان تكون بأحد أمرين : اما أن يفقده روحه أو عقله ·· فأسعد الناس اثنان : ميت ومجنون
وكانت رحمة الله لصاحبنا بالطريقة الثانية ·· فلقد حاولت أن أرد على خطابه فعلمت أنه جن !! يا له من رجل عاقل !!·

رجل عبقرى

وضع العبقرى منظاره فوق عينيه وأخذ ينشر أمامه ورقة قد طويت فى يديه ‥ وبدا عليه ارتباك شديد كأنه تلميذ يوشك أن يلقى قطعة من المحفوظات ·

ومضت فترة قبل أن يسود المكان السكون عقب تلك العاصفة المدوية من التصفيق والهتاف ، وأخيرا هدأ القوم ولم يعد يسمع فى أنحاء القاعة الرحبة الأرجاء الا همسات خافتة ·

وانتظر فترة قبل أن يسود المكان السكون عقب تلك العاصفة المدوية من التصفيق والهتاف ، وأخيرا هدأ القوم ولم يعد يسمع فى أنحاء القاعة الرحبة الأرجاء الا همسات خافتة ·

وانتظر القوم أن يتكلم الرجل المحتفى به والذى احتشدوا لتكريمه ، ونظر الرجل الى الورقة فى يده ، ومرت برهة وهو صامت لا يتكلم ، وأخيرا طوى الورقة مرة أخرى ثم رفع رأسه وخلع منظاره وبدا متوتر الأعصاب ، مرهق النفس ، كأنما ينوء بحمل لا قبل له به ·

كنت أحس ما يعتمل فى نفسه اذ ذاك من المشاعر فقد كنت أدرى الناس به ‥ كنت أعرفه ، شديد الخجل ، جم الحياء ، لا يربكه شيء

قدر أن تواجهه بالاعجاب او تلقى على مسامعه مديحا أو ثناء ..
فما بالك وقد وجد نفسه أسـيرا فى دار الأوبرا ، مجبرا على أن ينصت الساعات الطويلة الى أحاديث المديح فيه ، وخطب الاعجاب به وقصائد الاشادة بفضله ، وان كنت أشك كثيرا فى أنه قد أنصت فعلا فهو أقدر الناس على السرحان فى أثناء الخطب والمحاضرات .

ما بالك بالرجل الخجول وقد وجد نفسـه مبعث هتاف وموضع تصفيق من الجماهير الغفيرة التى احتشدت بها المقاعد والمقصورات، حتى لقد ظن نفسه زعيما أو ممثلا !!

ما بالك وقد وقف بلحمه ودمه على مسرح الأوبرا ليرد على أقوال المعجبين والمادحين .. حقيقة أنه قد حضر ما سوف يلقيه ، وحقيقة أنه حفظه وقرأه على عدة مرات حتى حفظته أنا نفسى عن ظهر قلب ، ولكنى مع ذلك أراه قد عاوده خجله وأصابه الارتباك ، وارتج عليه فلم ينبس ببنت شفة ، ونشر الورقة وطواها دون أن يقرأ منها حرفا .

وأخيرا فتح الله عليه ، ففتح فاه وبدأ الحديث ، ووصـل الى مسامعى صوته الأجش ، وقد أخذ يلقى كلماته ببطء وتؤدة . قال :

« أنا لا أجيد الحديث .. ولقد حاولت أن أكتب ما سوف أقول حتى لا يبدو للناس عجزى ، ولست أكتمكم القول أنى اجهدت نفسى فيما كتبت ووضعت فيه ما استطعت من تنميق وزركشة ثم أجهدت نفسى فى حفظه حتى لا أرتبك فى القائه .. ومع كل ذلك فقد أصابنى الارتباك لأننى وجدت ما كتبت ركيكا سخيفا اذا ما قورن بما أحس به فعلا .. ان لكل انسان أمنيات فى صباه ، وأمنيات الصبا لا يقتصد فيها المرء ولا يتعقل بل يطلقها من أوهامه براقة بلا حدود ولا قيود ، ولقد تمنيت فى صباى أن أكون كاتبا شهيرا وتخيلت نفسى رجلا ذائع الصيت طائر الشهرة .. وبالغت فى الخيالات وفى الأوهام ، ورغم ذلك لم أستطع بأوهامى أن أصـور لنفسى ما أحس به الآن ولا أن

اضعها فى الموضع الذى وضعتمونى فيـه ·· أجل ما استطعت أن أوهمها انى سأكرم حيـا ·· وانى سـيقال فى ما قد قلتموه ، ولا اخالنى استحق شيئا مما حدث ومما قيل ، ولكن ما ذنبى وقد أجبرت على قبوله وأغلب ظنى أن مبعثه هو كرم فى نفوسكم ·· لا فضل فى ·· ولا نبوغ منى !

ولا أظنكم بعد كل ما فعلتموه من أجلى ترفضون لى مطلبا أخيرا وهو أن تعفونى ـ وأنتم الكرماء ـ من رد دينكم لأنه لا يرد ، فأنا أضعف من أن أرده ، وأعجز عن أن أخرج ما فى قلبى على لسانى ، والسلام عليكم » ·

وترك الرجل المنصة متعثرا مضطربا ، واندفع الناس فى نوبة جنونية من التصفيق والهتاف ونهضوا عن مقاعدهم متجهين نحو الأبواب ·· فقد انتهى الحفل ·

وذهبت أبحث عن صاحبى ·· الكاتب العبقرى ·· فوجدته بين الجماهير كأنه فأر غريق ·· ولم يكد يبصرنى حتى تقدم الى وتعلق بذراعى كأنه يتعلق بحزام النجاة ، وسألنى أن أخرج به الى الهواء الطلق ·

وكان صـاحبى رغم عبقريته ككاتب ، ورغم كل ما أقيم له من حفلات تكريم ، ورغم ما له من شهرة وتقدير ، ما زال فى نظرى « الخم » خلق الله ! وكنت أرى فيه خير دليـل على المثل العامى : « يعطى الحلق للى بلا ودان »

فقد كان لا يعرف كيف يتمتع بشهرته وبمركزه ، وكم حاولت أن ألقنه بعض دروس فى العظمة أو التعاظم وأن أعلمه كيفـيسير وكيف يرد تحيات الناس ، وكيف يتصنع التقل والكبرياء ، ولكنى كنت كالنافخ فى « قربة مقطوعة » فما أجدت الدروس نفعا ، وكم حاولت أن أرغمه على تقليد « سيد أفندى » وهو أحد النكرات ، كان لا يقبل

علينا الا منتفخ الأوداج ، واضعا يده فى جيبه ، ممسكا عصاه باليد الأخرى ، مطاولا برأسه الى السماء ·· مصعرا خده ، وعليه سيماء من يشعر أن كل من حوله يتهامسون : هذا هو سيد أفندى الرجل الشهير ·· ها قد أقبل سيد أفندى · ألم تروا سيد أفندى ؟

وكنت أحس بالرثاء لسيد أفندى ، لأن الأقدار خلطت بينه وبين صاحبى ، فقد حرمته الشهرة التى تتناسب مع تصرفاته ومظهره ، وأعطت صاحبه من الشهرة ما لا يتناسب قط مع تواضعه وانكاره لذاته · وكنت كثيرا ما أقول له (مشيرا الى سيد أفندى) : « تعلم كيف تسير ·· تعلم كيف تنظر الى الناس ! » ·

فيجيبنى فى دهشة : « أنت لا شك مجنون ·· أتريدنى أن أسير هكذا ·· كالديك الرومى ! · أتريد أن تضحك الناس منى ؟ ! » ·

واستمررت فى قولى محاولا اقناعه :

ـ عندما تسير أنت كالديك الرومى ، فلن يضحك عليك أحد ، لأنك يحق لك أن تسير كما تشاء ، وأن تفعل كما تشـــاء ·· ولكن عندما يسير هذا الحمار النكرة كالديك الرومى ·· لا يستحق الضحك فقط ، بل يستحق ضرب النعال ·

ومع ذلك لم يقتنع صاحبى ·· بل استمر على مشيته ـ القلبانة ـ ·· وعلى خجله من الناس ، وفراره منهم ، وكلما ازدادت شهرته ازداد تواضعه وازداد حياؤه حتى بت أعتقد أن الرجل لا يعرف قدر نفسه ·· وأن ما يصدر عنه من دلائل النبوغ وعلامات العبقرية ليس سوى خبط عشواء ·

لقد صارحته بذلك ذات مرة فلم يجبنى بأكثر من قول جوتيه شاعر الألمان « نحن لا شىء ، ولو صدقنا أنفسنا فوضعناها فى أماكنها لما بقى فى الدنيا غرور ولا كبر » ·

وهكذا لم أستطع أن أبدل من صاحبى العبقرى . ولا استطاعت

الشهرة أن تغريه بالكبرياء والتعاظم ، واستمر هو هو ، فى لخمته وتواضعه ، حتى هذا اليوم الذى أجمع فيه القوم على تكريمه ووضعوه بين النجوم وعلى هامة السحب خرج يتأبط ذراعى وهو يتعثر فى أذياله ويكاد يذوب خجلا ·

ودلفنا الى العربة ، ولم تكد تسير بنا العربة قليلا حتى أمر السائق بالوقوف وأنبأنى أنه يرغب فى السير وسألنى ان كنت على استعداد للسير معه ، فلم أمانع ·

وصرفنا السائق وسرت واياه فى ميدان العتبة وتجاوزنا بناء البريد · وكانت الساعة قد بلغت السابعة ، والميدان يعج بالمارة ومركبات الترام كأنها خلايا النحل ، والعربات يزاحم بعضها بعضا وآلات التنبيه لا تكف عن الصياح ، والباعة يتواثبون ويتصايحون ، ويتكون من كل هذا خليط من أصوات تصدع الرءوس ، والجو قد علقت به ذرات لست تدرى أمن تراب أم من ضباب ، ذرات تتكسر خلالها حدة الأضواء المتناثرة المتنافرة ·

ووصلنا الى شارع عبد العزيز ·· وعبرنا قضبان الترام متجهين الى شارع محمد على ، وسرنا على الافريز العريض الذى تحده الأعمدة الضخمة التى رصت على جوانبها شتى أنواع الكتب والروايات ·

وتوقفنا برهة نقلب الطرف فى الكتب المرصوصة هنا وهناك ، ثم عاودنا سيرنا الهوينى ·· وبدا على صاحبى أنه يستعيد لنفسه ذكريات حلوة غابرة ، وأنه يشعر من سيره بمتعة ، فقد علت وجهه علامات السكينة والانشراح ، وسمعته يدندن بصوت خافت أغنية قديمة هى « ياما انت واحشنى » وكنت أعرف أن هذه الأغنية هى أبرز علامات انسجامه وسروره ·

ووصل الى أذنى صوته يدندن فى خطوات : « كيد العوازل

كايدنى » ،عندما صاح صوت من جانب الطريق : « اتفضل يا أستاذ » ، ثم اندفع الينا من احدى المكتبات رجل بجلباب ومعطف وهجم على يد صاحبى فهزها هزا عنيفا مقسما أغلظ الأيمان أن نتفضل ، ورأينا أنفسنا أمام أحد أمرين : اما أن نطلق للريح سيقاننا ·· أو نتفضل ·· فتفضلنا ·· وجلس الرجل يجذب أنفاسا من الشيشة ، وأخذت الشيشة تكركر وتتصاعد منها الفقاقيع ، وجرعنا فنجانين من الشاى الأسود ·· ثم ودعنا الرجل وهو يقسمْ أغلظ الأيمان أن نعاود زيارته ·

وعاودنا السير حتى وصلنا الى باب الخلق وصاحبى ما زال فى انشراحه ودندنته ، وان كان قد انتقل الى أغنية أخرى وأخذ يردد : « سبانى سهام العين » ، وطال بنا السير دون أن أعرف وجهته ، أهو يقصد مكانا معينا ، أم هو يسير لمجرد الرغبة فى السير ؟ ولم أرد أن أقطع نشوته بالسؤال ، وسرت الى جانبه أدندن أنا الآخر ·· وقلت لنفسى : علام الخجل ، وأنا لا أفعل أكثر مما يفعله رجل ·· كرمته البلد ·· فى دار الأوبرا منذ دقائق معدودات ؟

ورأيت صاحبى يتجه فجأة الى اليمين ·· ودخلنا فى شارع قادنا الى حى الحلمية ، وهنا لم أجد بدا من سؤاله : الى أين ؟

ولم يجبنى لأول وهلة ، بل مال بى الى حانوت لبيع عصير القصب ، ودفع بابه الزجاجى ودلفنا الى الداخل ، وجلسنا على مقعدين بينهما منضدة نحاسية مستديرة وأقبل علينا صاحب الحانوت يحيى صاحبى فى لهفة وشوق · ورد عليه صاحبى تحيته بنفس اللهفة ونفس الشوق ·· كأن بينهما قديم صحبة وسابق ود ·

وجلست أتأمل الرجل بجلبابه الأبيض ، ولاسته التى لف بها رأسه وغطى أذنيه ، وقد أخذ يروح ويجىء فى المحل الضيق وقد بدت عليه فرحة شديدة ، وأخذت ألفاظ الترحيب تنساب من فمه :

ـ سلامات يا بيه ·· واللہ زمان ·· زارنا النبى ·

ولم تكن فرحة صاحبى بجلسته فى الحانوت بأقل من فرحة الرجل ·· فقد بدت عليه علامات البشر والأنس ·· وأخذ يسأل الرجل عن حاله وعن أولاده وامرأته ·

وأمسك الرجل بعيدان القصب يغسلها وينظفها بسكينه ثم يدفع بها بين شقى العصارة فيسيل منها العصير أبيض كالحليب وينسكب فى ابريق مغطى بشاشة نظيفة بيضاء تحجز ما قد يرسب فى الابريق من تفل وشوائب ·

وقدم الينا الرجل كوبين مترعين بالعصير قد توجتهما رغوة بيضاء ، وأخذ صاحبى يحتسى كوبه بلذة ونهم حتى أتى على ما فيه فأفرغ له الرجل كوبا آخر ·

وكان المحل يقوم على ناصية الشارع ·· فهو يهيىء للجالسين فى داخله مراقبة السيل الذى لا ينقطع من المارة ومشاهدة زبائن محلات الحلوى والبقالة والفاكهة التى تقوم على جانبى الطريق ، والتطلع الى عدد لا يستهان به من شرفات النوافذ والدور المقابلة ·· وهكذا كان الحانوت أشبه بنقطة مراقبة ·

ووضعت الكوب على المنضدة ، وقلت لصاحبى فى شىء من التهكم :

ـ لو عرف مكرموك فى دار الأوبرا أين تقبع الآن ·· لندموا على تكريمهم إياك !

فرفع حاجبيه وقال فى لهجة مؤكدة :

ـ ولو خيرت أنا بين قضاء الساعات الطوال أسيرا فى دار الأوبرا ، وبين بضع دقائق أقضيها فى احتساء كوب من عصير الحاج محمود ·· لفضلت العصير ·· ما رأيك ؟

ـ جنون ·· أو شذوذ ·· أنا لا أنكر أن العصير من نوع جيد ··

ولكنه لا يستحق ذلك المشوار الذى قطعناه من أجله ·· لا يستحق أن نحبس أنفاسنا مع الحاج محمود داخل ذلك الحق الملىء بالقصب·

ولم يجب صاحبى ، ورأيته يتطلع ببصره من الأبواب الزجاجية ، ويشرد بذهنه برهة ثم يسألنى ببساطة :

ـ هل تعرف منزل الأنس ، الذى عناه الشاعر فى قوله :

بالله يا منزل الأنس الذى درست

آثاره وعفت منــــذ بنت أربعـــــه

لقد كان لنا هنا منزل أنس ·· بانت مبعث أنسه ·· ورحلت عنه منبع حياته ·· فدرست من بعدها آثاره ·· وعفت أربعه ، اللهم الا أثرا واحدا بقى يذكرنا بها وبه ، هو هــذا المحل الذى نجلس فيه الآن ·

وأقول الحق انى دهشت من قول صــاحبى ، وفوجئت من رنة الأسى التى به ·· فما كنت أتوقع أن يكون له فى المكان واقعة غرام قديمة ·· وما كنت أتوقع أيضا أن تكون كعبــة غرامه التى يحج اليها ·· هى دكان عصير قصب ، وأن يكون هــذا الدكان هو كل ما تبقى من منزل الأنس الذى يتحدث عنه ·

وسألته متضاحكا :

ـ هل أفهم من قولك أننا قد قطعنا كل تلك المسافة من الأوبرا الى الحلمية ·· حتى تتمتع حضرتك بزعازيع الغرام ، ومصاصة الهوى الباقية من منزل الأنس الذى عفت آثاره ؟

ـ لا تكن « بايخا » ولا تحاول أن تهزل فى كل موضع ·

ـ آسف ·· ولكن هل تنوى أن تظل هكذا جالسا فى بقايا منزل الأنس ، أم قد آن لنا أن نعود أدراجنا ؟

ـ قم بنا ·· نمشى قليلا ·

ونهضنا ، ولم يقبل الرجل أن يأخذ منا مليما واحدا رغم الحاحنا عليه ، وقال لصاحبى مؤنبا :

ـ عيب يا أستاذ ·· دى معـرفة العمر وعشرات السنين ·· فضلك سابق وخيرك علينا ·

وسرنا على الافريز بجوار المحلات ، وآشار صاحبى الى محل بقال بجوار المحل الذى خرجنا منه ، قائلا :

ـ هذا المحل كان قيما مضى معمل طرشى ·

وأشار الى محل بجواره لبيع الأدوات المدرسية وقال :

ـ أما هذا فكان مبيض نحاس وبجواره كان يوجد الأسطى سعيد العجلاتى ·· وعلى الناصية كان يقف حسونه بائع الجوزية ، وعلى الناصية الأخرى كانت تقف عربة غزل البنـات · أما هـذه الدار المجاورة فكانت مدرسة أولية تدعى « حسن المسرات » ·· كل ذلك قد أصابته يد التغيير والتبديل ·· لا شىء قد بقى على حاله سوى الحاج محمود بائع عصير القصب . ولكنى مع ذلك لا أكاد أجوب المكان حتى ترتسم فى رأسى صورته القديمة ·· فما استطاع الزمن الذى محاها من الحقيقة أن يمحوها من الذهن ، أو قل ان الذهن أكثر تعلقا بالصورة القديمة فهى تذكره بأيام حلوة وسنين خضر يانعة ·

أنا لا أبصر فى ذلك المنظر الذى تبصره شيئا ، ولكنى أبصر المنظر القـديم والصـــورة الغـابرة ، أبصر بائع الجوزية وأبصر مبيض النحاس الذى سود النحاس وجهه وقد وضع قدميه فى احدى الحلل ، وارتكز بيديه على الحائط وانهمك فى تحريك نصفـه الأسفل وهز وسطه وعجزيه ·· أبصر أمامى منزل الأنس عندما كان يشيع فيـه الأنس ·· أبصره قبل أن تدرس منه الآثار ، وتعفى الأربع ·· أبصره منذ عشرين عاما وقد سرت بجواره كما أسير الآن ·· وقد حملت

تحت ابطى بعض ما كتبت ‥ وانتابنى شعور عزيز قوم اجبرته الحاجة على مد يده للسؤال ٠

كنت اذ ذاك أحد النكرات ، وعندما أقول أحد النكرات ‥ لا أقصد بذلك أننى أضحيت الآن خيرا مما كنت فأنا هو أنا ‥ ما تغيرت وما تبدلت ، ولكن نظرة الجماهير الحمقى الى قد تغيرت ، وقيل لهم ان هذا رجل عبقرى فرددوا القول كالببغاوات وأقبلوا على كقطيع من الغنم يسيغون كل ما أكتب حتى ولو كان سخافة ، واذا ما كتبت شيئا غير مفهوم ، اعتقدوا أنه أسمى من مداركهم وازدادوا اعجابا به حتى لا يفهم سواهم أنهم لا يفهمون ٠

كنت وقتذاك أكتب لنفسى ‥ فما كان هناك من يحس بى ، وكانت الآمال تصطخب فى جوفى ، وكانت تدفعنى أحيانا الى أن أرسل ما أكتب الى الصحف والمجلات ‥ ثم أقبل على شرائها بلهفة على أرى فيها شيئا مما قد كتبت ، وتمر بى الأسابيع وأنا ما زلت آمل ، حتى يصيبنى اليأس ، وأدرك أخيرا أن ما كتبت قد طوته سلة المهملات ٠

وفى ذات يوم كتبت احدى القصص ، وأحسست من مجرد كتابتها بنشوة ، وخيل الى أنها من خير ما كتبت ، وقرأتها على صديق لى ‥ حتى أعرف رأيه فيها ‥ فقد كنت أدرك أنه ما من انسان الا ويدفعه الغرور الى الزهو بما كتب ‥ وطلبت من صاحبى أن يبدى رأيه فيها صراحة ٠

وانتهى صديقى من قراءتها ورأيت فى وجهه علامات التأثر واقسم لى أنها من خير ما قرأ وأنى لو أرسلتها الى أية صحيفة أو مجلة فان تتردد فى نشرها ٠

ولم أتبين فى صاحبى علامات مجاملة أو رياء ، فعزمت على أن أرسلها الى احدى المجلات على أنها آخر تجربة ٠

وسألنى صاحبى :

ـ كيف ترسل قصصك الى المجلات ؟

ـ بالبريد ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ خير لك أن تذهب بها بنفسك ٠٠ حتى لا يلقى بها في سلة المهملات دون أن تقرأ ٠

ـ ولكنى لا أعرف أحدا هناك ٠

ـ لا ضرورة لمعرفة أحد ٠٠ اذهب وقابل رئيس التحرير واطلب منه أن يقرأها أمامك ٠

ولم أتصور قط أننى أجسر على ذلك العمل ٠٠ ولم أشك في أن رئيس التحرير سيأمر بطردى شر طردة ٠

وتركنى صاحبى وجلست وحدى أفكر ، وأنا كما تعلم رجل خجول ٠٠ يسرى الخجل فى عروقى مسرى الدماء ، وانتهى الأمر الى التصميم على عدم الذهاب وعلى أن أرسل القصة بالبريد ، وليفعلوا بها ما شاءوا ٠

وحملت القصة لألقى بها فى صندوق البريد ٠٠ وخطر لى فى الطريق خاطر مفاجىء ، لم لا أجرب زيارة الأستاذ (٠٠٠٠) في داره ؟

لقد كانت داره قريبة منا وهو صاحب مجلة واسعة الانتشار ٠٠ لا يكتب فيها سوى كبار الكتاب ، فماذا على لو ذهبت اليه فى وقت راحته وسألته أن يقرأها ويرى ان كانت تستحق النشر ٠

وأخذت أشجع نفسى قائلا انى لن أعدم طريقة أقنعه بها لقراءتها ، وان الرجل لا شك سيخجل من زيارتى له فى داره ولن يلقانى بغير الترحيب ٠

واختمرت الفكرة فى رأسى واتجهت الى الدار ، وبيد مرتجفة طرقت الباب ٠

وفتحت لى الخادمة ووقفت بالباب تسألنى عما أريد ·· وأطل وراءها وجه طفلة صغيرة تسألنى بصوتها الرفيع : « أتريد بابا » ؟

وأنبأت الخادمة أنى أريد الأستاذ ··· فعادت تسألنى دون أن تفسح لى طريق الدخول : « نقول له مين ؟ » ·

ولكن الطفلة لم تعطنى فرصة الاجابة ·· ورأيتها تدفع الخادمة وتجذبنى من يدى صائحة : « انه موجود ·· تفضل » ·

وقادتنى الطفلة الى حجرة الاستقبال ، وذهبت الخادم لتنبىء سيدها وجلست الطفلة تعبث ببعض الدمى المرصوصة على احدى المناضد ·· وتوجه الى من آن لآخر أسئلة تافهة مضحكة ، وتقص على ما فعلت فى يومها وبعض ما سيحضره لها أبوها ·

وأخيرا دفع الباب ودخل الرجل الذى كنت أعلق عليه أملى ·

ولم يبد على الرجل أنه ارتاح لمنظرى ، وشد على يدى ·

وجلس على مقعد أمامى ، ثم أمرنى بالجلوس قائلا :

ــ تفضل يا أستاذ ·

وسادت بيننا فترة صمت أحسست فيهــا أننى قد أصبحت كما يقولون فى « نصف هدومى » وأخذت أجهد الفكر كيف أبدأ الحديث ·· هل أبدأ بمجاملة الرجل بمدح بعض ما قرأت له ، أم أتجه الى الموضوع رأسا وأسأله عما أتيت من أجله ؟

وطال الصمت ، وقطعه الرجل بقوله :

ــ أى خدمة يا أستاذ ؟

وازداد بى الحرج وارتج على وفتحت فمى لأتكلم ، ثم أغلقته ، وتكرر الأمر بضع مرات حتى خشيت أن يظن بى الرجل بلها فيطردنى شر طردة ، ولم ينقذنى سوى الطفلة الصغيرة التى تقدمت تحمل الى صندوقا من الحلوى وسألتنى :

ــ تريد « بومبون » ؟

ومددت يدى فأخذت من الصندوق واحدة ألوكها فى فمى وأستعين بها على لم أطراف شجاعتى ، ومدت الطفلة يدها فأمسكت بالظرف الذى وضعت فيه القصة وعادت تسألنى :

ـ ايه •• صور •• هل أستطيع الفرجة ؟

وهنا حلت عقدة لسانى ، وقلت موجها القول للرجل :

ـ هذه قصة يا سيدى •• قصة كتبتها وخيل الى أنها قد تصلح للنشر •

ثم صمت برهة أتمالك فيها أنفاسى وعدت أقول :

ـ وانى أتمنى لو وجدت من وقتك بعض الفراغ ، حتى تقرأها •

وصمت مرة ثانية فقد بدت على وجه الرجل علامات الغيظ وخيبة الأمل •

ولم أجد فى ملامحه أى مشجع على المضى فى الحديث •

وتكلم الرجل أخيرا وقال فى شبه تأنيب :

ـ أظن أنه كان من الأفضل لو أحضرتها الى ادارة المجلة فانى متعود أن أتخذ من البيت مكانا للراحة ! على أية حال يمكنك تركها •• وسأرى اذا كانت تستحق النشر •• وان كنت أنبئك سلفا بأن لدينا من أمثالها المئات •

وأحسست من قوله بمرارة ، وعزت على نفسى التى عرضتها لمثل هذا الموقف ، وحاولت جهدى أن أتمالك حتى لا يغلبنى البكاء ، فقد كنت أحس وقتذاك بالدموع قريبة من مقلتى •• دموع الفشل والخذلان ، وندمت أشد الندم على أنى لم أرسل القصة بالبريد •

وتقدمت الى الطفلة بقطعة أخرى من الحلوى على سبيل العزاء ، وأمسكت بالظرف فى يدها قائلة :

ـ سأضعه على المكتب •

ونهض الرجل فشد على يدى مودعا ، وخرجت أتعثر فى أذيال الفشل ، وأقسمت فى نفسى ألا أعود الى الكتابة ٠

ومرت بضعة أيام ، وكنت مستلقيا فى حجرتى عندما اندفع صاحبى الى الحجرة وقد أمسك بيده المجلة الشهيرة وقذف بها الى صائحا :

ـ مدهشة ؟ ألم أقل لك انها لا بد أن تنشر ؟

وأمسكت بالصحيفة أحملق فيها فوجدت اسمى قد نقش بالخط العريض على احدى صفحاتها « بقلم الأستاذ ٠٠ » ٠

ولا أظننى أستطيع أن أصف لك فرحتى وقتذاك ، فقد امتلأت نفسى بالأمل بعد أن شملها يأس حالك ، وعزمت أن أذهب للرجل حتى أقدم فروض الشكر ٠

وذهبت الى الدار مرة ثانية ولقيتنى الطفلة ، فأقبلت على مرحبة كأن بيننا صحبة قديمة ، ولقينى أبوها فهنأنى على القصة ٠

ثم أشار الى ابنته :

ـ ان الفضل فى نشرها راجع اليها ، فقد دستها بين المقالات التى أعدت النشر ، وأخذها الجماعون فصفوا حروفها وحملوا البروفات لأقرأها فأصابتنى الدهشة ، وتساءلت من أين أتى الجماعون بهذا الكلام ٠

وكنت قد نسيت كل شىء عنك وعن قصتك ، وأرغمنى ما بالقصة من تشويق الى قراءتها حتى النهاية فرأيتها من أبدع ما قرأت فأمرتهم بانزالها فى العدد الذى أعد للطبع ٠

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

ـ وهكذا الحظ ، لا يمنح للانسان الا وليد مصادفة ، ولا يفصل بين الشقاء والنعيم ، الا حادثة بسيطة قد تحدث وقد لا تحدث ، أو كما قال الخيام :

أترى عمر الفتى قد علقا بسوى خيط وماذا حسما
غير خيــــط بين نور وظــــلام

وطلب منى الرجل أن أكتب كثيرا وأبدى اسـتعداده لنشر كل ما أكتب ·

★ ★ ★

وكنا قد وصلنا الى عابدين ·· عابرين فى سيرنا درب الجماميز ، وشارع الخليج ، وتوقفنا فى عابدين وأشــار صاحبى الى احدى عربات الأجرة وانطلقنا الى داره فى المنيرة ·

وضمتنا حجرته ، وجلست على مقعــد وثير ، وتمدد هو على احدى الأرائك ، وأمر الخادمة أن تحضر لنا الشاى ·

وقلت متسائلا :

ـ لم تحدثنى بعد عن « منزل الأنس » ؟

وصمت صاحبى فترة استجمع فيها شوارد أفكاره ·· ثم أخذ يتم قصته قائلا :

« وهكذا أصبحت بين يوم وليلة كاتبــا معــروفا ، أو كما قال بيرون : « استيقظت من النوم فرأيتنى رجلا مشهورا » ·

وتهافتت على الصحف والمجلات ، فأعدت اليهــا ما سـبق أن أرسلته وقذف به فى سلة المهملات ، وتعمدت أن أطلب أجرا مرتفعا فقد كان بى شعور الشامت الآخذ بثأر نفسه ، المنتقم لكرامته ·

وكنت أحس فى قرارة نفسى أن الفضل فيما وصلت اليه من نجاح يرجع الى الطفلة الصغيرة ·· وكنت أشـعر لها بشعور العــرفان بالجميل ·· وزادت الأيام أواصر الصداقة بينى وبين أبيها ، حتى أضحى يرى فى أخا أصــغر ·· وأصــبحت كأننى فرد فى أسرته الصغيرة المكونة من زوجته وابنته ، وكان كثيرا ما يلقى على أعباء عمله ، فأقوم بها مرحبا مغتبطا ·

ومرت الأيام ، والأشهر . والسنون ، وأنا أقضى أسعد أوقاتى بينهم ·· وكنت أرى منزلهم منزلا لى ، أو كما كنا نسميه « منزل الأنس » ·

ونمت الطفلة وأصبحت فتاة كأنها الزهرة المتفتحة فى كمها ·· تنشر فى البيت عبيرها ، أو كأنها طير غرد يملأ الدار بترنيمه ·

وكانت الفتاة تنادينى بـ « عمى » وكنت لا ألقاها الا وأرفعها بين يدى وأغمرها بالقبلات ، فما نسيت قط أنها هى التى جعلتنى شيئا مذكورا ·

ولست أظن أن هناك امرءا استطاع أن يتمتع بقدر من السعادة كذلك القدر الذى استمتعت به وأنا فى « منزل الأنس » ·· المنزل الذى لايدخله الهم ·· وكانت كثيرا ما تجمعنا المدفأة فى الشتاء ، حيث أجلس لأقص عليهم القصص ، ونحتسى عصير القصب يرسله الينا الحاج محمود فى أباريقه ·

وفى ذات يوم أصيبت الفتاة بوعكة ، ازدادت على الأيام فأضحت داء عضالا ·

وهنا بدأت تلف الدار وحشة أليمة ، لا يكاد يسمع فيها المرء سوى همسات وزفرات ·· وأحسست أن هناك غصة فى حلقى أو كأن يدا تعتصر قلبى ، فلقد كان بى شعور أب يوشك أن يفقد حشاشة كبده ·

وبدأت أشم فى جو الدار رائحة الخطر ، وبدا لى من وجوه الأطباء أن خطبا مدلهما على وشك أن يحيق بنا ، فلقد كانت وجوههم مظلمة متجهمة ·

وفى ذات ليلة جلسنا فى القاعة كأن على رءوسنا الطير لا ننبس بكلام وقد توترت أعصابنا وأرهفت نفوسنا لا نكاد نجسر حتى على الاستلقاء ، وكانت الأم تجلس مع الفتاة فى حجرتها ·· ثم خرجت

الينا فتطلعنا اليها بأنفاس مبهورة ، وفى أعيننا نظرة تساؤل ·· وتقدمت الى الأم وهمست « انها تريدك » ·

ودلفت الى الحجرة التى ساد فيها السكون وعمت الظلمة واتجهت الى فراشها فجلست على حافته ومددت يدى فأمسكت بيدها أربت عليها برفق ، وأجبرت نفسى على الابتسام والتضاحك ، وقلت لها :

ـ أنت الآن أحسن ·· وستشرق الشمس عليك فتصبحين فى خير وعافية ، ان شاء الله ·

وهزت رأسها هزات خفيفة ، وهمست :

ـ ان الشمس لن تشرق على ·· لا فائدة ·· اقترب منى ! أتسمعنى ؟

وحاولت جهدى أن أتمالك ·· واقتربت منها وقلت :

ـ انى أسمعك يا حبيبتى ·· ولكن لا تجهدى نفسك بالحديث ·

ورأيتها تمد يدها تحت الوسادة فتخرج الى مفكرة صغيرة وتعطيها الى قائلة :

ـ احتفظ بهذه ولا تقرأها الا بعد ما أذهب ، واذا لم أذهب فأعدها الى دون أن تقرأها ·

وجذبت الفتاة يدى ثم وضعتها على فمها برهة ·

ثم ذهبت ···

أجل ! لقد ذهبت الى غير رجعة ·· لقد رحلت عنا رحيلا لا اياب منه · لقد تركت الدار وأهل الدار ، وقد أصيبوا بلوعة أدمت قلوبهم وأحرقت أفئدتهم ·

وصمت صاحبى ، وتحشرج صوته ، ودمعت عيناه ، ولم يعد فى حالة تساعده على اتمام الحديث ، ورأيته يمد يده فيفتح أحد أدراج مكتبه ، ثم يخرج منه مفكرة صغيرة ·· ويدفعها الى ·

وأمسكت بالمفكرة فوقع بصرى فى أول صفحة منها على ما يلى

« ·· ما الحياة ؟ ·· وما الانسان ؟!·· الحياة محيط من ظلمات حالكة مدلهمة ، مجهول البداية ، مجهول النهاية ·

والانسان فيها زورق تدفعه ريح الزمن وتقلبه أمواج الأحداث ونوء المحن ·· لا يقر له قرار ، ولا تهدأ من حوله ثائرة ، دفته فى يد القدر الغشوم والظروف الهوجاء فهو يهبط ويعلو ، ويندفع ذات اليمين وذات اليسار ، بلا سلطان له على نفسه ، ولا تحكم فى مصيره ·

وفى حلكة الدياجير وبين هدير الأنواء وزئير الرياح الهوج ، قد تلوح له فى الأفق بارقة ترشده الى مرفأ يقيه عصف الريح ولطم الأمواج ، فيندفع اليه علّه يجد لنفسه منه مأوى يريحه من عناء ، ويؤمنه من خوف ·· هذه البارقة هى ما يسمونه الحب ، وذلك المرفأ هو قلب يفيض عليه من حناياه دفئا وهداية . ويندفع زورق الانسان على ضوء البارقة فى لهفة وجنون ، فاما أن يصل الى مرفئه فيقضى بين أحضانه عمره ، ويجد من حياته حسنة ويستقر على قرة ، واما أن يخبو الضوء قبل أن يصل اليه ·· فتكون البارقة خادعة كاذبة ، ويعاود سيره فى دياجير الحياة وبين أمواجها المتلاطمة حتى يصل الى النهاية المجهولة · وكأنه ما ولد وما عاش ·

ترى أى مصير سيندفع اليه زورقى فى هذه الحياة ؟ لقد لاحت لى البارقة ، ولكنى لا أجسر على أن أتجه اليها ، فانى حائرة أتخبط ! هل تجسر فتاة أن تقول انها تحب عمها ؟ أجل ! انى أحب الرجل الذى يلقانى فيرفعنى بين يديه ويجلسنى على ركبتيه كأنى دمية فى يده ·· انى أحب رجلا ، يأبى الا أن يعتبرنى ابنته ، أية حمقاء أنا !! » ·

ولم أتمم قراءة المذكرات فقد أذهلنى ما بها ، وكرهت أن أطلع على أسرار فتاة ثوت فى باطن الأرض ·

ومددت يدى بالمفكرة الى صاحبى ، ولم أنبس بكلمة ، وأعاد صاحبى المفكرة الى مكانها وهمس الى :

ـ لقد دفعتنى الفتاة فى الحياة دفعتين : دفعة وهى طفلة حين رفعتنى من زوايا الخمول الى قمة الشهرة ، ودفعة عندما قرأت مذكراتها ، فقد جعلت منى انسانا آخر ، انسانا يتأجج فى صدره حب لا تخمد ناره وتجيش فى قلبه عاطفة لا يملك الزمن اخمادها ولا تستطيع الأيام محوها ·· انسانا يعشق روحا طاهرة خلت من أدران الأرض وشوائبها ·· أجل ! لقد علمتنى معنى الحب ، وجعلت منى ـ كما يقولون ـ رجلا عبقريا !!

رجـــل قـــريـــر

أتم الأسطى ابراهيم زينهم النجار نصف دينـه وأقبلت زوجته زكية تشاركه داره المتواضعة التى خلفها له أبوه .

لنبدأ بوصف الدار .. ثم أهل الدار .

الدار فى دمياط ، فى احدى الحارات الضيقة المتواضعة مكونة من طابقين : الطابق الأول دكانان ومندرة ، والطابق الثانى غرفتان وردهة ومرفق مياه .

يشغل الدكان الأول المعلم على الخضرى بقرنبيطه ، وكرنبه ، وطماطمه ، وكوسـته ، وبقيـة خضره ، التى تزخر بها الأرفف والأقفاص ؛ ويشغل الدكان الثانى عم يهنس بائع الحلوى ، ولعب الأطفال ، بمزاميره ، وطائراته ، وعرائسه ، وبرطماناته الملأى بكافة أنواع الملبس وبراغيث الست والمصاصات . وكان أشـهر ما فى الرجل مزماره الذى لا ينفك ينفخ فيه بين آونة وأخرى ، فتصدر منه أصوات كأنها زغاريد النساء .

أما المنـــدرة فكان يشـغلها الأسطى ابراهيم نفسـه بالكراسى والدواليب وغيرها من قطع الأثاث المحطمة ، التى يقوم بتصليحها وترميمها .

أما الدور الثانى فقد اتخذه الرجل لسكناه ، وحشد فيه جهـ.. زوجته مع المخلفات العتيقة التى تركها له والده ، والتى يبصرها فى الدار مذ وجد على قيد الحياة ·

هذا عن الدار ·· أما عن أهلها فلا أظن وصفهم يحتاج الى كثير جهد أو مشقة ·

هم قوم قريرو العين ، ناعمو البـال ، وهب الله لهم من قناعة النفس ذخيرة كبرى أعانتهم على الحياة ·· وهيأت لهم الرضا عن كل ما حولهم ·

الرجل كريم النفس ·· طيب القلب ·· ملء نفسه الايمان وملء روحه التقى والورع ·· راض عن كل شىء ·· يرى النـاس بعين الرضا الكليلة عن كل عيب ، المخفية لكل سوء ·· أما عين السخط التى تبدى المساوىء فهى عنده عمياء لا تبصر ·

ولقد وافق شن طبقة ·· فكانت امرأته لا تختلف عنه قليلا ولا كثيرا ·· فهى من النســاء الطيبـات ، القانعات ، الراضيات ، لا تغتاب الناس ، ولا تذكرهم بمسبة ·· تحب زوجها وتجد فيه نعمة أنعم الله بها عليها ·

كان الزوجان ينعمان بحياة رغدة هانئة ·· وكان الرجل لا يكاد يفارق الدار ، فهو اما فى مسكنه أو فى ورشته بين أكداس الأثاث المحطمة منهمكا فى دق المسامير أو خلعها ·· كان كل عمله لا يزيد على الترميم والترقيع ·· يجلس وسط الحجرة على مقعده الصغير وقد أحاطت به أكوام الكراسى القديمة والمناضد المهشمة ·

أما الزوجة فهى فى حجرتيهما دائبة عاملة ·· لا تكاد تنتهى من عملية تنظيف الدار التى تشمل الكنس ·· والمسح ، والتنفيض ·· حتى تبدأ فى تجهيز الطعام وطهوه ·· وهى فى خلال عملها تدس

فى قرارة نفسها بالغبطة والرضا ‥ لا تكاد تكف لحظة عن الترنم باحدى الأغنيات ·

وكان أكثر ما يبعث التفاؤل فى نفس الزوجين ويشيع فى قلبيهما السرور ‥ زمارة عم بهنس رغم ما كانت تحدثه من ضجيج ‥ وقالت الزوجة لزوجها وقد جلسا للغداء :

ـ هذه الزمارة تذكرنى بزغاريد عرسنا ‥ ان عم بهنس يجعل من كل يوم لنا عرسا جديدا ·

وهكذا كانت حياة الزوجين تجرى كزورق يسير فى رفق وهدوء ‥ لا نوء تعصف به ولا رياح هوج ‥ بل نسيم هادىء من الرضا والقناعة يحركه فى لين ويسر ‥ ويدفعه فى مجرى سهل مستقيم لا عقبات فيه ولا موانع ‥ حتى يصل الى نهايته المحتومة آمنا سالما دون خدش ولا عطب ·

ترى أية قصة يمكن أن نجدها فى حياتهما الآمنة المطمئنة ‥ حياتهما الطبيعية الهادئة التى لا التواء فيها ولا تعقيد ؟

هل يمكن أن يجد الكاتب فى أمثال هؤلاء القريرى العيون أبطالا لقصصه ‥ ؟ هل يمكن أن يجد من حياتهم موضوعا لقصة ؟

لم لا ؟‥ لنتتبع زورقهما السائر فى رفق ولين ‥ بلا عواصف ولا زوابع ‥ حتى نصل معه الى النهاية المحتومة ·

الرجل قابع فى مكانه المعتاد يرفع يده « بالشاكوش » ويهوى به فى طرقات آلية منتظمة ؛ والمرأة فى مطبخها تحرك يدها بشدة لتعطى الوابور نفسا حتى تعجل بنضج حلة البامية ؛ وعم بهنس ينفخ فى زمارته مطلقا الزغاريد ذات اليمين وذات اليسار ·

ويقترب رجل أسود يحمل على ظهره دولابا صغيرا فيضعه أمام الدار ثم يطرق الباب ·

ترك الأوسطى ابراهيم المقعد الذى أمامه ‥ وألقى الشاكوش

من يده ·· وقام ليرى الطارق ·· وبعد لحظات كان يتعاون مع الرجل على ادخال الدولاب داخل المندرة ·

كان الدولاب قطعة ثمينة من الأثاث بخشبه المتين وصنعه المتقن وأعمال الأويمة الدقيقة ·· وأنبأه الخادم الذى حمله اليه أنه لسيده زكى بك فوده وأنه يريد اصلاح وتركيب الساق المخلوعة ·· ثم غادره وانصرف بعد أن اتفق معه على أجر الاصلاح ·

وقف الرجل برهة يتأمل الدولاب ·· فما تعود من قبل أن يصلح مثل هذه الأشياء الثمينة ، وأخذ يتحسس النقوش التى به كأنه يتحسس ضريح أحد الأولياء ، وقد أخذ بدقة الصنعة ومهارة الصانع·

ومضت بعد ذلك بضعة أشهر ، وفى ذات يوم بعد أن تناول الغداء مع امرأته ·· لم يهبط المندرة وحده ليتمم عمله كعادته بل سحب زوجته من يدها برفق وطلب منها أن تهبط معه لأنه يود أن يريها شيئا ·

ووقفت المرأة تتأمل الدولاب الدقيق الصنع ، البديع النقوش ، وسألت فى دهشة :

ـ ألم تعده الى أصحابه بعد ؟

ـ بل أعدته ·

وهزت المرأة رأسها متسائلة دون أن تفهم ما يقصده ، فقال الرجل :

ـ لقد أعدت اليهم دولابهم ، أما هذا الذى أمامك ، فنحن أصحابه ، انه ملكنا ·· فأنا الذى صنعته ·

وفغرت المرأة من الدهشة فاها ·· واقتربت من الدولاب فتحسسته فى ذهول وقالت متسائلة :

ـ أنت الذى صنعته ؟ ·· أنت وحدك ؟ صنعته كله ؟

وعلت شفتى الرجل ابتسامة الغبطة والرضا وتمتم مجيبا :

ـ أجل ·· أنا وحدى ·· صنعته كله ·· ما رأيك ؟
ـ مدهش !

وحمل الدولاب الى أعلى ، ونقلت الملابس من داخل الصندوق فوضعت فيه ، وتصدر الدولاب حجرة النوم فخلع عليها رونقا وملأها روعة ·

ولم يعد سر الدولاب خافيا ، بل انتشر أمره ، وذاع صيته ·· ولم يبق من الجيران أحد الا وقد علم به وحضر لرؤيته · وفي ذات يوم حضر زكى بك نفسه صاحب الدولاب الأصلي ، فقد بلغه الأمر ، ووقف يتأمل الدولاب فى عجب ، ونظر الى الرجل قائلا :

ـ مدهش ·· رجل فنان ·· أوسطى ماهر ، صنايعى حقا ·

منذ ذلك اليوم أخذ الرجل يكف رويدا عن عمليات التصليح والترميم وبدأ يقوم بصنع بعض قطع الأثاث وعمل الأويمة وكلما صنع شيئا كان يبعث على الاعجاب ·

وبعد مضى عام كان قد كف تماما عن تركيب الأرجل وتصليح الأرفف ·· وانتقلت ورشته من المندرة الى محل متسع فى أحد الشوارع الرئيسية ·· ذى واجهة زجاجية فخمة ، وقد وضعت وراءها بعض قطع الأثاث المعروضة للبيع ·

ولم يفكر الرجل طوال تلك الفترة أن يتخذ له صبيا أو معاونا يساعده فى عمله ·· بل كان يقوم بكل العمل وحده ·· حتى بدأ يحس أن العبء قد ثقل ، وبات انجاز الأعمال المطلوبة منه فى مواعيدها المحدودة أمرا متعذرا ، فجلس ذات يوم يتشاور مع امرأته ويسألها رأيها فى أن يتخذ له معاونا يحمل عنه بعض العناء ·

وكانت المرأة فى قرارة نفسها تفضل لو أن زوجها اكتفى بمندرته الصغيرة وعمله المحدود ، فقد كانت تكره أن تراه متعبا مكدودا وكان يتملكها نحوه شعور بالعطف والحنان ، شعور أشبه بشعور الأم

نحو ولدها وهى تراه ينهك نفسه فى الدروس والاستذكار ، ولقد كان الرجل فعلا أشبه بابن لها ·· ابن فنان نابغة لا يصلح كغيره من الفنانين فى أعمال التعامل والادارة والتجارة ، فهو لا يجيد الحساب ولا يذكر المواعيد ، ولكنه ، بأدوات النجارة فى يده ، وبقطعة من الخشب أمامه ·· تسرى فى أصابعه قوة سحرية ومهارة فائقة ·· فيفعل بها العجب العجاب ·· انه رجل فنان ·· كما يشهد بذلك كل من تعامل معه ·

وكانت المرأة تسد بأمومتها ذلك النقص فكانت تقوم عنه بأعمال الحساب وتذكره بالمواعيد ·· وكانت تعتقد أن العمل يمكن أن يسير على هذا المنوال وأنهما لن يكونا فى حاجة الى معاونة أحد ، حتى بدا لها الرجل فى ذلك اليوم وقد أصابه الهزال من فرط الانهاك وزاد جسده نحولا وضمورا ·

وتحسست المرأة رأسه برفق ، وربتت على ظهره بحنان كأنه طفل صغير وقالت له :

ـ أجل ·· انك لا تستطيع أن تتحمل العبء كله ·· لا بد أن يكون هناك من يعاونك على الأقل فى أعمال النجارة ، على أن تقوم أنت بالتشطيب وعمل الأويمة ، فلا أظن هناك من يستطيع عملها مثلك ·

وابتسم الرجل ، فقد سره أن تمتدح المرأة عمله ، وأن ترى فى عمله فنا لا يستطيع غيره أن يفعله ·· ولقد كان كثيرا ما يتملكه العجب من أنها رغم جهلها بالعمل نفسه ، لهـا عين بصيرة نافذة تستطيع أن تميز بها العمل الجيد · وكان يحس أن أكثر ما يحبب اليه امرأته هو فرط احترامها لعمله ، وتقديرها له ·

كانت اذا ما أبصرته قد انتهى من احدى قطع الأثاث وأتم حفر نقوشها تقبل عليه باعجاب مفرط وتتحسس نقوشها بأصابعها برقة ورفق كما تتحسس الأم رموش طفلها المستغرق فى نومه · وعندما

كانت تجرب ادخال درج صنعه لاحدى المناضد ، كانت تدخله برفق . وتخرجه ببطء وقد أحاطته بجو مملوء بالاعجاب كأنها لم تر من قبل درجا يركب فى منضدة ·

لشد ما كانت المرأة تقدر نبوغ الرجل !!·· وكانت تلك هى الرابطة السحرية التي، تشد أحدهما الى الآخر ·

وهكذا اتفقا على احضار من يعاونه ، ولم يبق الا الاتفاق على الشخص الصالح ·

اقترحت المرأة أن يتخذ له معاونا طيب الخلق ، هادىء الطبع ، وأن يجعل منه أخا وزميلا ، لا معاونا فقط ·· ولم يكن للرجل سوى هذا الرأى ، ولم تمض لحظات حتى كانا قد اتفقا على أن خير من يصلح للمهمة هو الأوسطى على الشحط ورأت المرأة أن يدعوه الى الغداء من الغد ، ثم يعرض عليه العمل معه ·

وشعرا أنهما قد انتهيا من حل مشكلة عويصة ·· وزادت نفساهما رضا على رضا ·· وقاما الى الفراش فرقدا فى هدوء ·· ومد الرجل يده فى الظلمة يتحسس بها شعر المرأة ووجهها ، وأحست المرأة بيده فوق شفتيها فقبلتها بحنان ، ثم دفن رأسه فى صدرها وراح كلاهما فى نوم هادىء عميق وسادت السكينة حول النفسين الراضيتين ·

وفى اليوم التالى حضر الأوسطى على الشحط ، وكان اسما على مسمى ، فلقد كان شحطا حقا ، ونظرت اليه المرأة وقارنت بينه وبين زوجها الضئيل النحيل ، واقتنعت بأنه ليس هناك أسهل من أن يطويه بين يديه ، ويلقى به من النافذة ·

وبقدر ما كان الأوسطى على ، شحطا فى جسده ، كان قزما فى نفسه ، فقد كان رجلا بسيطا ، طيب القلب ، شديد الخجل ، كثير الصمت ، لا يتكلم الا بقدر ما يسأل ، وانتهى ثلاثتهم من الغداء وقد

اتفقوا على كل شيء ، دون أن يجدوا أية مشقة فى الاتفاق ! ، وهل يصعب الاتفاق الا على ذوى النفوس الخبيثة الطامعة التى تملؤها الأنانية ويغزوها الحقد ؟

وهكذا احتل الأوسطى على مكانه فى المحل ، فأخلى له ركنا حيث وضع البنك الخاص به وبدأ عمله فى صمت وسكون بجوار الأوسطى ابراهيم وضاعفت الست زكية كمية الغداء التى كانت تحملها فى الظهيرة الى المحل ، فلقد أصر الزوجان على أن يشاركهما الأوسطى على غداءهما ·· ولم لا والمثل يقول : اللقمه اللى تقضى واحد تقضى اتنين » ما دامت النفوس قانعة ·

وكان الزميلان ، كما سبق القول ، من نوع صامت لا يتحدث ·· فكانا يقضيان طيلة يومهما دائبين على العمل ، مغرقين فى الصمت ·· لا يكادان يتبادلان من الكلمات الا ما تحتمه الضرورة ·· ويظل الشحط منحنيا على البنك بجسده الضخم لا يكاد يرفع رأسه الا حين تحضر المرأة بالغداء ، فيذهب فى سكون يغسل يديه على الحوض - ولكن ليس قبل أن يتم المعلم ابراهيم غسل يديه ويدعوه الى التفضل - ثم يجلس فى حياء الى المنضدة التى رصت عليها الصحون ، ويبسمل قبل أن يضع فى فمه اللقمة الأولى ثم يحمد ربه بعد اللقمة الأخيرة ·

ومرت الأيام بالزميلين ·· فازدادت بينهما الثقة ·· وتوثقت عرى الصداقة ، ومع ذلك فلم ترفع الكلفة بينهما ، فقد كان كلاهما حييا خجولا ·· واستمرت حجب الاحترام التقليدية تقوم بين أحدهما والآخر ·· ولم يجسر واحد منهما أن ينادى الآخر باسمه مجردا من لقب معلم أو أوسطى ، وما تحدثا قط فى الأوقات القليلة التى كانا يخرجان فيها من صمتهما ، الا فى شئون العمل أو فى أشياء عامة تافهة ·· أما شؤونهما الخاصة فما حاول أحدهما أن يخوض فيها

قط ·· اللهم الا مرة واحدة كانت الأولى والأخيرة ·

مرة واحدة حاولت المرأة أن ترفع فيها الكلفـــة بينهما وبين الأوسطى على وكان ذلك عندما دعواه ذات مساء عقب انتهاء العمل الى العشاء معهما ؛ وجلس ثلاثتهم يتناولون الطعام فى ســـكون لا يقطع صمتهم الا أحاديث متقطعة عن أحد الزبائن ، أو عن حجرة نوم يجب أن ينتهى منها بسرعة ، وعن تجديد بعض أدوات المحل ·

وانتهى العشاء وقدمت الست زكية القهوة ، وبدأ المعلم ابراهيم يخرج صندوق الدخان ويلف سيجارة له وأخرى لصاحبه قائلا :

ـ سيجارة عند العشاء هى أمتع سيجارة ·· تساعد على الهضم وتزيل تعب اليوم ·

وأخذ الرجلان ينفثان الدخان ، وتصاعدت حلقاته في جو الغرفة ، ووصل بعض دخانها الى أنف المرأة فشمتها بلذة وقالت ضاحكة :

ـ لقد تعودت أنا الأخرى شم سيجارة المساء ، انها شيء ممتع حقا ·

وانتهى الأوسطى على من تدخين سيجارته ، ونهض من مقعده محاولا الانصراف ، فقال له المعلم ابراهيم :

ـ بدرى يا أوسطى ·

ـ لقد حل ميعاد النوم ·· انى كالأطفال لا بد أن أكون فى فراشى قبل التاسعة ·

وضحكت الست زكية وقالت للرجل فى صوت رقيق :

ـ أما آن لك أن تتزوج يا أوسطى على ·· انك فى حاجة الى من يؤنس وحشتك ·· ان رحلة الحياة طويلة شاقة ، والطريق مظلم موحش ، ولا بد لكل انسان من رفيق يعينه على مشاق السفر ووحشة الطريق ·

ولم يجب الرجل ، وأطرق ، ثم خيمت على وجهه سحابة اكتئاب ،

وتملكه الخجل ، وأسرع فى توديع الرجل وزوجتـه فى شىء من الارتباك • وهبط الدرج فى عجلة ، وبعد لحظات كان قد احتوته ظلمة الطريق ووحشته •

لقد نكأت المرأة بقولها جرحا خيل اليه أنه اندمل • لقد فكر الرجل فى الزواج منذ زمن طويل ولكن السنين توالت والمسألة لا تتعدى طور التفكير •• لقد أضحى الآن فى الأربعين •• ان الوقت متأخر •• لقد قطع معظم الطريق وتعود وحشته •• وهو يستطيع أن يتمم السير وحيدا •• ثم ان هناك سببا أساسيا •• سببا لم يحاول أن يتعمق فى بحثه أو يسأل نفسه عن معناه وعلته ومصدره ، ولكنه كان يعرف أنه قائم •• وكان موقنا به ، واثقا من وجوده •• وهو أنه لا يتصور قط أنه يستطيع الذهاب الى الست زكيـة واخبارها أنه سيتزوج مخلوقة أخرى •

★ ★ ★

بعد أسبوع من تلك الليلة استيقظ أهل الحى على ضجيج وصراخ، وشاهدوا ألسنة اللهب وقد تصاعدت من احدى الدور وتكأكأ القوم على الحريق يحاولون اطفـاءه وحضر رجال المطافىء بعـد فترة قصيرة ، ولم تخمد النار الا بعد أن حرقت الدار وبضع دور مجاورة•

وهبط المعلم ابراهيم من داره ، وانـدفع بين الناس مستطلعا الأمر ، ووقف أمام الدور المحترقة متطلعا ببصره فى ذعر شديد •• وقد أحس برعدة تسرى فى جسده •• لقد كانت دار صـاحبه بين الدور المحترقة •

واندفع يشق طريقه بين جمهرة الناس محاولا الوصول الى الدار، ولكنه لم يسر خطوة حتى وجـد الأوسطى على قد وقف بجسـده الضخم ، عارى الرأس حافى القدمين •• وقد أمسـك فى احدى يديه منبه ، وبدا عليه ذهول شديد •

وربت المعلم ابراهيم على ظهره برفق ، وسحبه من ذراعه ليخرجه من بين الجماهير ، فانتفض الرجل بشدة ، وأفاق لنفسه وقال فى صوت هامس مبحوح :

ـ لقد احترق كل شيء ‥ فقدت كل ما أملك من حطام الدنيا : فراشى ، وثيابى ، ونقودى ‥ لم أعد أملك الا هذا • وأشار الى المنبه •

وأحس المعلم ابراهيم أن قلبه يدمى حزنا على صاحبه ، ولأول مرة ذهب عنه حياؤه ورفع الكلفة ، فخاطب الرجل باسمه دون أن يسبقه لقب « أوسطى » قائلا له :

ـ لا تحزن يا على ‥ احمد الله على نجاتك ‥ قضاء أخف من قضاء • هيا بنا •

وسار الرجل بجواره مطأطىء الرأس ، وأردف المعلم ابراهيم يقول :

ـ لا تحمل هما ‥ ان بيتى بيتك ‥ ان لدينا حجرة زائدة تستطيع أن تستعملها للنوم حتى تسوى أمورك •

ولم يكن الرجل فى حالة تسمح له بالاعتراض على أى شيء ، ووصل الى دار صاحبه وهو ذاهل شارد ، حتى وقف أمام الست زكية ، فبدأ يعود الى وعيه ، وتملكه الخجل من منظره ، وحاول أن يعتذر عن الدخول ، ولكن المرأة قالت له بصوت رقيق :

ـ اتفضل يا أوسطى على ‥ احمد الله على سلامتك ‥ ان الدار دارك ، وأهلها أهلك ‥ ان الله يبعث بالشدائد ليجلو صدأ القلوب ‥ يعلمنا كيف يعين بعضنا بعضا •

ودخل الرجل الى حجرة الجلوس بعد أن أعدت له المرأة الأريكة التى بها حتى يرقد عليها ، وودعه المعلم ابراهيم بقوله :

ـ تصبح على خير ‥ لا تحمل هما ‥ يمكنك استعمال الحجرة

حتى تجد لك بيتا ، وفى الصباح تستطيع أن تبتاع ما يلزمك من الثياب ٠

وأغلق الباب عليه ، وبعد لحظات احتواه الفراش بجوار امرأته وتلمس أحدهما يد الآخر فى الظلمة وهمست المرأة :

ـ يجب أن نعامله بقدر ما نستطيع من الرقة ٠٠ يجب أن يشعر أنه فى بيته ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ بالطبع ٠٠ انى سأعطيه فى الصباح بضعة جنيهات يبتاع بها ما يلزمه ٠٠ انه يستحق كل خير ٠٠ ولا أظننى أستطيع العمل بدونه ٠

ـ انه وحيد فى الحياة ، وليس هناك قلب يحس مصابه ويشاركه أحزانه وأشجانه ٠٠ ان الوحدة شاقة مضنية ٠

وتحسس الرجل شعر امرأته ووجهها فأحس بقطرات من الدمع تندى جفنيها فرفع يدها برفق الى شفتيه وهمس قائلا :

ـ كيف يكون وحيدا ٠٠ من تدمع من أجله مقلتاك ؟

وفى اليوم التالى جلس الثلاثة للغداء ، وقال الأوسطى على انه سيذهب عقب انتهاء العمل للبحث عن شقة ٠٠ وأجابه المعلم ابراهيم :

ـ لا داعى للعجلة ٠٠ ان الحجرة خالية ٠٠ ويمكنك استعمالها كما تشاء ٠

ثم نظر الى امرأته بقلق خشية ألا تكون موافقة على رأيه ، ولكن المرأة ابتسمت وقالت مؤمنة على قوله :

ـ أجل ٠٠ أجل ٠٠ لا داعى للعجلة ٠٠ ان وجودك بيننا لا يثقل علينا قط ٠

ومرت الأيام بعد ذلك والأوسطى على يقطن مع المعلم ابراهيم فى حجرة الجلوس ، وبدأ الرجل وزوجته يسميان الحجرة : حجرة الأوسطى على بدلا من حجرة الجلوس ٠٠ ولم يعد هناك من يفكر فى

خروجه ·· وكان آخر مظهر لاستيطان الرجل الدار عندما وضع المنبه على البوفيه فى الصالة قائلا فى استحياء :

ـ هل تسمحان بوضعه هنا حتى يمكن لثلاثتنا استعماله ؟ انه الشيء الوحيد الذى أبقاه لى الحريق ·· لقد ورثته عن أبى ·· انه منبه مخلص أمين لا يتوقف عن عمله لحظة ، لا يقدم ولا يؤخر ·

وضحك الثلاثة ·· واتخذ المنبه موضعه فوق البوفيه ·· يدق دقاته المنتظمة الهادئة ·· الشديدة الشبه بدقات قلوب أهل الدار ، القلوب الآمنة المنتظمة الراضية القانعة ·· دقاته الهادئة التى ينساب معها زورق حياتهم السائر فى لين ورفق ·· السائر وكأنه غير سائر ·· ينزلق فى بطء وتؤدة فى مجرى الزمن ، وكأن راكبيه ـ من فرط نعومة السير ـ لا يحسون الليالى تمر والآيام تتعاقب ·

واستمر المنبه يدق مع السنين فى الدار الساكنة ، واستمر الزورق يسير ، واستمر الركاب الثلاثة فى الكبر سويا ·· كأنهم ثلاثة أشجار قد تجاورت وتشاركت فى خصب الأرض الطيبة ونمت كل منها فى طريقها آخذة نصيبها من الماء والشمس والهواء حتى دب فيها الهرم وأخذت تتساقط أوراقها ·

وكان المعلم ابراهيم هو أكثر الثلاثة تعرضا لفعل الزمن ، وأسرعهم هرما واسقاطا لأوراقه ، فلقد انحنى منه الظهر ، وتهدج الصوت ، وابيض الشعر ·· وتثاقلت مشيته وقل جهده ، وان كانت أصابعه استمرت كما هى ماهرة فنانة ، أما الست زكية فقد ترهل جسدها وازدادت بدانة ·· وكلما ازداد بها الهرم ازدادت نفسها طيبة وقلبها رقة وجمالا · وازداد حبها للناس وعطفها عليهم ·· لقد كانت دائما تتلمس لأخطائهم المعاذير وتترفق بهم وتحنو عليهم ·

أما الأوسطى على الشحط فقد استمر شحطا كما هو ، محافظا

على قوته وضخامته ·· ما تراخت عضلاته ولا انحنى ظهره ·· بل استمر كما هو ·· متين البنيان ، عريض المنكبين ·

مضى عشرون عاما على يوم الحريق ·· عشرون عاما والرجل يعيش فى الدار كأنه واحد من أهلها ، والزورق يسير بثلاثتهم فى هدوء ورفق ، دون أن يطرأ على حياتهم أقل تغيير حتى كان ذات يوم بلغ أحدهم نهاية رحلته فانزلق من الزورق ·

مات المعلم ابراهيم وكان ذلك فى يوم أحس فى صبيحته ببعض التعب وذهب الى الحانوت كعادته ، ولكنه عاد الى الدار فى الظهر ، وأنبأ امرأته أنه متعب بعض الشيء ، وأنه فى حاجة الى قليل من الراحة . ورقد على الفراش وقد بدا شاحب الوجه ، منهك الجسد ، وأخذ يرقب نظرات امرأته القلقة ، وعلت شفتيه ابتسامة رقيقة وسألها قائلا :

ـ ماذا يقلقك ؟

ـ لست تبدو كعادتك ·· يجب أن نحضر طبيبا ·

ـ لا ·· لا ·· ان المسألة لا تستحق··· انى أريد الراحة ·· لا شيء أكثر من هذا ·

ومد يده فأمسك يدها وشد عليها بحرارة ، وتصاعدت من أسفل الدار صوت زمارة عم بهنس ··· وانطلقت منها الزغاريد كما تعودت أن تنطلق منذ عشرات السنين ·· لقد هرم الرجل ·· وما هرمت زمارته ·· ولا خفتت زغاريده ·

وهمست المرأة ضاحكة :

ـ أتسمع الزغاريد ·· زغاريد فرحنا ·· انها لم تخفت لحظة ·· لقد كان كل يوم من أيام زواجنا عرسا ·

وجذب الرجل يدها فوضعها على شفتيه وطبع عليها قبلة

شاكرة ·· ثم أغمض عينيه وفاضت روحه صاعدة الى السماء ناعمة هانئة ·· كما كانت فى الأرض قريرة راضية ·

وعندما مات الرجل انتقل الأسطى على من الدار فاستأجر حجرة فى منزل قريب · واستمر يؤدى عمله فى المحل مغرقا فى صمته كما كان يفعل فى حياة الرجل ·· وتولت المرأة ادارة المحل ، وأخذت تشرف على الحسابات وعلى البيع والشراء ، ومضى عام وهى تكافح وتناضل حتى أضناها الجهد وأنهكتها المشقة ، والرجل يرقبها فى اشفاق وخوف ·· حتى كان ذات يوم رقدت فى الدار ، فذهب لزيارتها وجلس أمامها مطأطىء الرأس ، وقد تملكه الخجل كعادته ·

ومضت فترة صمت طويلة فتح الرجل فاه ، وهم بالكلام عدة مرات ولكنه أغلقه ثانية ، وأخذ يتنحنح مرتبكا ، وأخيرا جمع أطراف شجاعته وبدأ الحديث :

ـ لقد أسديتما الى جميلا لن أنساه مدى العمر ·· لقد آويتمانى وأعنتمانى على الحياة ، ولقد عاملنى زوجك بأكرم ما يعامل به انسان ، وكم أود لو استطعت أن أرد اليه بعض صنيعه ·· انك فى حاجة الى رفيق يعينك على السير بقية الحياة ·· انى فى الستين من عمرى ولقد انطفأت فى نفسى جذوة الشباب وما يتبعه من احساس بالحب ·· بل لا أظن لمثلى أن يتكلم فى مثل هذه المسائل ، ولكن كل ما أبغيه هو أن أكون معك فى الدار حتى أقيك السوء ، وأذهب عنك الوحشة ، وأن أتولى عنك شؤون المحل وأرفع عنك عبء العمل ·

ونظرت المرأة الى الرجل المطرق ، وخيل اليها أنها تبصر أضواء الاخلاص تشع من قلبه ·

ان زوجها الراحل لو استطاع النطق لشكر الرجل على جميل قوله ، ولسره أن تجيبه الى مطلبه ، وأى خطأ هناك فى أن يتعاونا فى خريف الحياة !! أى خطأ فى أن يركبا زورق الحياة سويا فيتهادى

بهما حتى يذهب بكل منهما الى نهايته ؟ ألم تقل هى نفسها : ان الله يبعث بالشدائد ليجلو صدأ القلوب ، ويعلمنا كيف يعين بعضنا بعضا ٠

وتزوج العجوزان ، وعندما جمعتهما الدار سويا أول مرة بعد وفاة المعلم ابراهيم عقب عودته من المحل فى المساء ، جلسا حول منضدة العشاء كما تعودا أن يجلسا فى الأيام الغابرة ، وحملت النافذة الى المرأة صوتا حبيبا الى سمعها ، هو صوت الزغاريد المنطلقة من زمارة عم بهنس ، وترقرقت الدموع فى مآقيها ٠٠ ولاذت بالصمت ٠٠ لقد كانت تلك الزغاريد خاصة بها هى والمعلم ابراهيم فقط ٠٠ ان الأوسطى على لا يعلم عنها شيئا ٠٠ لقد كان لها عرس واحد ٠٠ هو عرسها مع ابراهيم ، ولقد كانت تلك زغاريده ، وستبقى زغاريده حتى نهاية العمر ٠٠

وانتهيا من العشاء ٠٠ وأخرج الأوسطى على علبة الدخان ولف له سيجارة وأخذ ينفث الدخان حلقات فى الجو ، ووصلت رائحة الدخان الى أنفها ، ونظر كلاهما الى المقعد الخالى ، وبدا كل شىء كما كان منذ أعوام ، وكأن المعلم ابراهيم ما فارقهما قط ، ووصلت الى أذنيهما دقات المنبه ٠

ونهضت المرأة قائلة :

ـ أظن الوقت قد حان للنوم ؟

واتجهت المرأة الى حجرتها التى اعتادت أن تنام فيها هى والمعلم ابراهيم ، واتجه الرجل بدوره الى الحجرة التى تعود أن ينام فيها وألقى كل منهما الى الآخر نظرة ملؤها الرضا والقناعة ٠ وقال الرجل كما تعود أن يقول دائما :

ـ تصبحى على خير يا ست زكية ٠

وأجابته المرأة كما تعودت أن تجيب دائما :

ـ تصبح على خير يا معلم على ٠

وسادت السكينة الدار وخيم الصمت ٠

ورقدت نفوس أهلها قريرة ناعمة ، ولو جسدت الأرواح ، لشاهد الناس روح الزوج الراحل تحوم حول الدار وهى أنعم الأرواح بالا وأكثرها رضا ٠

رجـــل كافـــر

حدثنى صاحبى ، وقد شرد بذهنــه وبصره . وزفر زفرة حارة موجعة ٠٠ قال :

ـ كثيرا ما أسائل نفسى : لم كان أحب الاشياء اليها فى هذه الحياة هو أضرها بها . وأشدها تحريما عليها ؟ ! ولست أدرى والله أيهما كان أسبق من الآخر . وأيهما كان مصدر الخطأ ؟ ٠ أهو شغف الانسان بكل ما حرم عليــه وأضر به . أم تحريم الطبيعة ووضعها الضرر والأذى فيما شغف به الانسان ؟ أجل ٠٠ من هو أصل الخطأ ؟٠ الانسان الذى أولع بالضرر ، أم الطبيعة التى جعلت أكثر ما أولع به الانسان مضرا مؤذيا ؟ !

على أية حال ، وسواء أكان هذا أسبق أم ذاك ٠٠ فما من شك هناك فى أن أصل شقاء الانسان ومصدر بلائه هو ذلك التناقض بين ما يشتهى وما هو خير له ، أو بين ما يلذ له وما يجب عليه ، وما من شك هناك أيضا فى أنه لو عدل أحد الطرفين ـ الانسان أو الطبيعة ـ عن رأيه ، وعكست آيته ، فعدل الانسان عن شغفه بكل ما حرم عليه وسبب له الضرر والأذى ، فكره الخمر مثلا ، أو كره التطلع الا الى

المرأة التى أحلت له ، أو لو عدلت الطبيعة من جانبها فجعلت فى الخمر شفاء للناس وصحة لأبدانهم . ولم تجعل التطلع الى النساء اثما وفجورا ·· أجل ، لو حاول الانسان أن يخضـع للطبيعة ، أو لو حاولت الطبيعة أن تتحور لكى ترضى الانسان ، أو لو التقيا فى منتصف الطريق ·· فأية سعادة كانت تعم الانسان وقتئذ ؟ وأى بلاء كان يرفع عنه ! ؟ ·

ولكن أية فائدة هناك من تمنى المستحيل ؟ أية فائدة هناك وحياة الانسان سلسلة من الشغف بما يضره ، والتطلع الى ما يؤذيه ؟ · فهو اما أن يفعله فيصيبه الضرر الناتج منه ، واما ألا يفعله فيصيبه ألم الكبت وشقاء الحرمان ·· كل ما فى الحياة كذلك ·· منذ ولد الانسان حتى يموت ·· فاللعب عنده لذيذ ، ولكن مذاكرة الدروس – وهى أثقل الأشياء على نفسه – هى التى تفيده ، وشرب الميـاه المثلجة فى الصـيف لذيذ ، ولكنه من أضر الأشـياء ·· والنسـاء لذيذات ، ولكنهن متعبات مؤذيات ·· والخمر والميسر لذيذان ، ولكن فيهما كل الشر والتلف ·

انى لأحس أحيانا ببغض شديد لهذه الحياة ، اذ يخيل الى أننا لم نخلق فيها الا لنشقى ·· فالشقاء هو الأصل فى هذه الحياة ·· أما لحظات السعادة الخاطفة التى تتاح لنا بين هنيهة وأخرى ·· فليست الا قطرات تعيننا على استمرار السير فى قفر الحياة وجدبها ·· حتى لا نسقط اعياء فى منتصف الطريق ·· أو هى سراب خلب يغرينا بتحمل الألم والشقاء حتى لا نفر من الحيـاة ونتركها غير آسفين ولا نادمين ·

فى ذات مرة من هذه المرات ·· التى تبدو لنا الدنيا فيها كئيبة مظلمة حقيرة تافهة ·· والتى يحس فيها الانسان زهدا فى الحياة ورغبة فى الهرب منها ·· والتى ينظر المرء فيها فلا يرى أمامه حتى

هذا السراب الكاذب الذى يتعلل به ، والذى يغريه باستمرار السير •

فى ذات مرة من هذه المرات خرجت من الدار •• وأنا أحس على كتفى عبئا ثقيلا من هموم الحياة •• وأحس بنفسى ضيقا وتبرما ، ودلفت الى عربتى الواقفة أمام الباب وانطلقت بها فى طريقى الى الصيدلية لأحضر الدواء الذى كتبه الطبيب فى التذكرة التى طويتها فى جيبى منذ لحظات •

وأمسكت بعجلة القيادة ، ومرقت فى الطريق الواسع المضاء •• وكان قد خلا الا من العربات المجنونة التى تمر بى كلمح البرق أو من عربات الأوتوبيس بعجيجها وضجيجها كأنها معركة متنقلة •

وأخذ ذهنى يسبح فى تلك الظلمات التى لفته ، وتتابعت عليه الأفكار الكئيبة التى أحاطت به •• وأبصرت ابنى وقد رقد مريضا بين ذراعى أمه •

ابنى !!•• ابنى أنا !!•• يا للسخف ويا للحمق الذى يحدونا الى انجاب ذرية فى هذه الأض •• يا للجنون الذى يدفعنا الى انسال أبناء •• نشقى بهم ويشقون بأنفسهم !• كم كنت شغوفا بأن أرى لى ابنا •• ترى لم كان منى هذا الشغف ؟ أترانى كنت أخشى أن أموت فتحرم الدنيا النسل الصالح ؟ ترى أكنت أخشى على هذه الثروة الهائلة ألا تجد لها وريثا ؟ أى حمق حدا بى أن أضع على كاهلى عبئا •• وفى يدى قيدا ، وأن أضيف الى أسباب الشقاء فى هذه الحياة أسبابا جديدة ؟ بل أى حمق دفعنى الى الزواج ؟ • بل أى حمق ما زال يدفع الناس حتى الآن الى الرغبة فى الزواج ، رغم تلك التجارب القاسية التى مرت بمن سبقوهم والقوا بأنفسهم الى التهلكة من قبلهم ؟ •• ليس أعجب من أننا لا نجد زوجا الا ويشكو من الزواج ، ولا عزبا الا وهو يرغب فى الزواج !

ما أشبه الزواج بمصيدة •• وما أشبهنا قبل الزواج بفار خارج

المصيدة يغرينا منها ذلك الطعم الشهى اللذيذ ، السهل المنال ٠٠ فندخل المصيدة ٠٠ ونتمتع بأكله لحظة أو لحظات ، ولا نكاد ننتهى من أكله حتى نتطلع الى خارج المصيدة ، زاهدين فى كل ما فيها ، وبنفوسنا لهفة الى الخروج منها ٠٠ ولكن أنى للفأر أن يخرج من المصيدة ؟

هذا هو أول قيد يكبل به الانسان نفسه طائعا مختارا ، أما القيد الثانى والثالث والرابع ٠٠ ففى الذرية وحدها كفاية !

ولقد وضعت فى يدى القيد الأول ، ثم تلهفت على القيد الثانى فلم يبخل به الله على ، وأضحى لى ابن ، وأصبحت أبا !

خبرونى أيها الآباء ٠٠ من منكم قد مر به يوم دون أن يعانى من أبنائه ؟ وخبرونى لو جمعنا كمية الشقاء والحزن التى يسببها لنا الأبناء ، ووضعناها فى كفة مع كمية المتعة أو الفرح التى يسببونها لنا ٠٠ أيهما ترجح ؟ ! قولوا الصدق أيها الآباء المساكين !

أترى تلك الأفكار العاصفة الثائرة ، التى طافت بذهنى وقتذاك ، أكان منشؤها حزنى على ابنى لأنه مريض ؟ لا ٠٠ لا أظن ٠٠ فما كان مرضه بالذى يستدعى منى ذلك الحزن ، فقد كان كل ما به وعكة خفيفة ، أغلب ظنى أنها سرعان ما تزول ، وأغلب ظنى أننى لو كنت أصبت بمثلها ، وأنا فى مثل سنه لما استدعت أمى طبيبا ، ولما احتاج الأمر الى دواء ، ولكن سبب ما بى من حزن ويأس انما هو أمه !! أمه التى لا تكاد ترى وعكة ألمت به أو ألما أصابه مهما كان طفيفا ، حتى أراها تسرع بالترمومتر الى فمه ٠٠ فلا تكاد تبصر به شرطة أو شرطتين ، حتى أرى الاكتئاب قد علا وجهها ، والبؤس قد جلله ٠٠ فكأننا قد فجعنا بموته ٠٠ من يصدق أنى فى بعض هذه الأحيان لم تكن تزعجنى قط فكرة موته ـ موت ابنى ـ حتى أضع حدا لذلك الاكتئاب والحزن الذى لا يكاد ينتهى ؟

وفى هذه الليلة خرجت لأحضر له الدواء ·· وبنفسى من التبرم بالحياة ، والزهد فى العيش ، ما جعلنى أتعجب من حرصنا على البقاء فى هذه الدنيا ، واصرارنا على أن نتحمل كل ما فيها من شقاء حتى النهاية ·· ولكننى لم أستطع الا أن أهز رأسى وأواصل سيرى بالعربة ·· حتى وقفت أمام الصيدلية ·

وأعطيت الرجل التذكرة ، فأخذها من يدى ونظر اليها لحظة ثم قال : « بعد نصف ساعة » ·

وتركته وقلت لنفسى : « اذهب الى المنتدى الذى تعودت الجلوس فيه ، ثم أحضر اليه بعد نصف ساعة » ·

ولم يكن المنتدى يبعد كثيرا عن الصيدلية ، فلم تمض لحظة حتى كنت أجلس فى ركن هادىء من أركانه متكئا على مقعد مريح ، سابحا بعينى فى السماء المزدانة بالنجوم ، وكانت تلك خير طريقة أطرد بها هموم الحياة عندما تتزاحم على صدرى ولا أجد من يعاوننى على طردها ·

ولكن السكون لم يطل ·· فقد قطعه صوت سقوط شىء بجوارى على الأرض ·· أغلب ظنى أنه كتاب سقط عن منضدة ·· وتلفت فوجدت كتابا على الأرض ·· ورفعت بصرى ·· فوجدتها ·· هى ·· وقد جلست على مقعد بجوار المنضدة ·· وأصابتنى دهشة ·· فما كنت أشعر أن أحدا بجوارى ·· وما كنت أتوقع قط أن أجدها فى المنتدى فى ذلك الوقت ·

لا تتعجل بسؤالى من تكون « هى » ·· فستعرفها من حديثى بعد لحظات ·· لقد مددت يدى بسكون وأمسكت بالكتاب ، ثم وضعته على المنضدة ·· وسمعتها تتمتم بكلمة شكر ، فأشرت لها برأسى « العفو » ، ثم عاودت الجلوس كما كنت ·· كما كنت من حيث المظهر فقط ·· أما من حيث الاحساس والشعور ، فقد تغيرت كثيرا عما

كنت ٠٠ لقد أحسست بشيء من الراحة والهدوء ، وأخذ الضيق والتبرم ينقشعان عن نفسى الى حد ما ٠

وجعلت أختلس النظر اليها من طرف عينى ٠٠ فبدا لى وجهها فى الضوء الباهت الذى اختلطت به الظلمة وهو أشد سحرا وفتنة ٠٠ وتمنيت لو استطعت أن أجاذبها الحديث فقد كنت أرى فى ذلك خير مبدد لسحب اليأس والضيق المخيمة على نفسى ، ولكنى لم أحس فى نفسى القدرة أو الجرأة على أن أكون البادىء بالحديث ، ولم يكن ذهنى فى حالة من الصفاء بحيث يسعفنى بشيء طلى أجعله موضع حديث ٠

ولكنها ـ لدهشتى الشديدة ـ بدأت هى الحديث بلا ترقب منى ولا توقع ، بل كانت طريقتها فى الحديث تنبىء عن اللهفة والرغبة الملحة ، فقد مدت يدها الى بالكتاب قائلة :

ـ هذه قصة قد ظهرت حديثا لستيفن زفيج ٠٠ لعلك قد قرأت له ؟

ـ لقد سمعت عنه ٠٠ ولكن لم أقرأ له ، اذ لا أجد من وقتى فسحة ٠

وخيم الصمت برهة ، ولكنها كانت ـ كما خيل لى ـ مصرة على ألا ينتهى الحديث بهذه السرعة ، فعادت تقول :

ـ الجو جميل جدا هذه الليلة ٠

ولم أكن أحس أن الجو كما قالت جميل ، فما ترك لى ذلك الحزن الذى كنت غارقا فيه فرصة للتفكير فى الجو أو الاحساس بجماله ٠٠ فلذت بالصمت ٠

ولكنها أصرت على الحديث ، وعلى ألا تقنع بالصمت فسمعتها تتساءل فى صوت به شيء من اللين : حزين ؟ !

وهنا أصبح الأمر أكثر مما أحتمل ٠٠ فقد كان كثيرا على أن أسمع صوتها الرقيق اللين يسألنى ـ أنا الذى لا أتلهف على شيء لهفتى على سماع صوتها ـ عما اذا كنت حزينا ، ولم أستطع أن

أمنع هزة عرتنى ونشوة سرت فى رأسى وتمنيت لو أفضيت اليهـا ، ببعض أحزانى ، فمن غيرها أقدر على منحى جميل العزاء ؟ ومن غيرها أجدر بأن يهب نفسى حلو الشفاء من مر الشقاء ؟

وقلت بصوت خافت كأننى أحدث نفسى : أجل حزين !

واقتربت بمقعدها منى قليلا وأجابت فى رقة :

ـ وعلام الحزن ؟

ـ وعلام غير الحزن ؟!! وأى شئ يمنعنا من الحزن فى هذه الدنيا التى لا يعرف الانسان فيها ماذا يريد ، والتى لا يفتأ يتطلع فيها الى ما لا يستطيع نيله ؟ فهى سلسلة من التطلع والحرمان ·· والآلام والأحزان :

ـ هذا كلام لا يسهل فهمه ·· أو قد يكون غير ذى معنى ·· أو هو فلسفة حزينة مبعثها ضجر نفسى ·· قل ما يحزنك بالضبط ؟ ·· أو حدد مثلا لذلك الذى تدعوه تطلعا وحرمانا ·· الام تتطلع ؟ ! ومم أنت محروم ؟

· وكأنها لمست بكلماتها هذه موضع العـلة فنكأت القرح وأدمت الجرح وكأن فى سؤالها هذا مفتاح صدرى المغلق على ضيقه وقلقه ·

وخطر لى عندئذ أن أفرغ كل ما فى جوفى ، وأن أقول ما لا يخطر لها قط على بال ، هذه فرصة قل أن يجود بمثلها الدهر ·· فهى التى قد سألتنى ·· فلا ضير على ان أجبت سؤالها ·

ولكنى ترددت ، وخشيت العاقبة ، فقد كان هذا الذى أنوى أن أقوله ·· هو الجنون بعينه ·· أو هو كلام لا يمكن أن يقوله مثـلى لمثلها ، لمجرد سؤالها عما يحزننى ، ومع ذلك ومع اعترافى بأنه عمل جنونى ·· وجدتنى أنطلق قائلا :

ـ تريدين مثلا !!· أتراك جادة فى قولك ؟ · أتريدين حقا أن تعرفى مثلا لما أتطلع اليه ، ولما أنا منه محروم ·· أتريدين ذلك حقا ؟!

اذا فخذى مثلا لذلك ٠٠ أنت ؟!٠٠ أنت نفسك ؟! أنت نفسـك مثل لما أتطلع اليه ولما أنا محروم منه !! لا تدهشى ، وعلى الأصح لا تتصنعى الدهش ٠٠ منذ عام وأنا أتطلع اليك ٠ لا أقول أحبك ، فكلمة الحب كلمة مائعة مطاطة ٠٠ بل أقول أتطلع اليك ٠٠ وأريدك ٠٠ أجل ! أريدك ، هـذه هى الكلمة المضبوطة ، ففى ارادتى لك يكمن الحب والرغبة واللهفة والتمنى والاشتهاء ٠ منذ عام وأنا أريدك ، لا تقولى اننى متزوج لأننى أعلم هذا ، ولأننى حتى الآن لم أفعل ما يشيننى كزوج ولم أرتكب ما يسمونه الخيانة ، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أمنع تلك الرغبة التى تتأجج فى صدرى كلما رأيتك ، فذلك شىء فى باطنى لا أستطيع السيطرة عليه ٠٠ وما استطعت أن أدفع عن نفسى ذلك الشعور بالراحة والغبطة كلما جلست على مقربة منك أو كلما رأيتك مقبلة ، ولا استطعت كذلك أن أذود عن نفسى ذلك الاحساس بالضيق كلما رأيتك منصرفة أو كلما افتقدتك فلم أجدك ٠

لقد رأيتك أول مرة فى الصـيف الماضى ، وانى لأذكرك تمـاما حينذاك كأنى رأيتك بالأمس فقط أو كأنى أراك الآن أمامى ٠٠ وقد وقفت بذلك المايوه الأسود الذى التصق بجسـدك كأنما هو قطعة منك ٠٠ أو كأنما قد نما معك ٠٠ ولبست فى قدميك الدقيقتين قبقابا خشبيا ٠٠ يا للعجب ! ٠ أية مخلوقة كنت وقتذاك ٠٠ وأى سحر كان ينبعث منك ٠٠ ومن ذلك الجسـد العجيب فى لونه الأبيض المشرب بخفيف الحمرة ؟ وأى فتنة أبصرتها فى ساقيك الممتلئتين ، وفى تلك الحسنة بساقك اليمنى ، وفى خصرك الضـيق ، وصـدرك البارز المتحدى ، وفى شفتيك حيث يتمنى المرء أن يقضى عمره فى مسهما بشفتيه ، وأنفك الدقيق وعينيـك العجيبتين ٠ ترى كيف استطعت مقاومة سحرك فى هذه اللحظة ، وكيف أمكننى أن أكتفى وقتـذاك بالنظر والتطلع ؟

ثم تعودت أن أراك بعد ذلك ، أو تعمدت أن أراك ، ولا بد أنك بدأت، تحسين بي أنت الأخرى وتعرفينني ٠٠ كنا نتبادل النظرات ٠٠ وكنت دائما أحاول أن أجلس بحيث أواجهك ، وبحيث يمكنني أن أراك بسهولة دون أن ألفت الى الأنظار . وكنت أنت أيضا من جانبك حينما تقبلين تنتقين مكانا يواجهني حتى لكأني انا الذى انتقيت لك المكان ٠

ومرت الأيام وأنا لا أفعل شيئا سوى التطلع والتمتع بالنظر ٠٠ وكنت كريمة معى أبعد حدود الكرم ٠٠ اذا اعتبرنا أن مطلبى لم يكن له أن يتعدى سوى التمتع بالنظر ، وانى لأذكرك وقد أقبلت فى يوم من أيام الشتاء فانتقيت مقعدا يجاورنى وحولته حتى أصبح كلانا يواجه صاحبه وجلست منى على قيد خطوات وكنت ترتدين جيب رماديا وبلوزة التريكو البيضاء ٠٠ وكان صدرك يريد أن يقفز منها ٠٠ ثم وضعت ساقا على ساق ٠٠ ولم أستطع أن أمنع بصرى من التسلل الى ساقيك . ثم الى حرف الجورب الذى نقشت عليه الزهور الدقيقة ، ثم ارتفع البصر الى ما فوق الجورب فأبصرت جانبا من ساقك في صفائها ونقائها . وأبصرت بالحسنة . فأحسست بنشوة عجيبة تفوق تلك النشوة التى كنت أحس بها عندما أبصرك عارية الا من لباس البحر ٠

ترى أكانت هذه الجلسة منك مصادفة أم كنت تقصدين بها أن تبعثى الجنون الى رأسى ؟ سامحك الله ٠

ماذا تريدين منى أن أقول أكثر من ذلك ، عام بأكمله قد مر بى ، وأنا فى تطلع وحرمان وانتظار ما وراءه سوى اليأس ٠٠ ماذا أريد منك وأنا رجل متزوج ؟! ان أقصى نجاح لى معك يعتبر أقصى هبوط وأكبر زلل ٠٠ ولكنى مع ذلك ٠٠ أريدك ٠٠ ولا أستطيع أن أدفع لهفتى عليك ؟

هذا مثل للتطلع والحرمان ٠٠ لا تتهمينى بالجنون ٠٠ ولا ترمينى

بالسخف أو بالسفاهة والوقاحة ·· أنت البادئة بالسؤال ·· وأنت التى طلبت مثلا ·· وما فعلت سوى الاجابة ، وســوى أن ضربت مثلا ·· فاياك أن تغضبى وانسى كل ما قلته ·

ولكنهـــا لم تغضب ·· ولم ترمنى بالجنـون ·· لا ·· ولا بالسخف ، ولا السفه والوقاحة ، بل مدت يدها بهدوء فأمسكت بيدى وضغطتها برفق ·· ولم تنبس بكلمة ولكن بعثت من عينيهـا نظرة تركتنى ثملا ·

ونهضت فنهضت وسرنا الى حيث العـربة فجلست بجـوارى وانطلقنا الى طريق فى أول الصحراء وانتحينا ناحية خالية ·

دع عنك لومى ·· فقد كنت فى غير وعى ·· لقد كنت مخلوقا أخر ·· انى قطعا لم أكن أنا · لقد أصابنى من النشوة أكثر مما أحتمل ·· تماما كما تفعل الخمر بشخص لم يتعود الشراب ، لنتصور أنها قد أضحت بين يدى وأضحى جسدها يلامس جسدى ·· هى التى قد مضى على عام وأنا لا أتمنى شيئا سوى قربها والنظر اليها ·· لقد استلقت أمامى وقد انساب شـعرها وتهـدل ·· ثم أحسست بشفتيها تحت شفتى وعبير أنفاسها يختلط بأنفاسى ·· اننى أستطيع أن أمسك بحروف الجورب الذى طالما تقت الى لمسه ، وأستطيع أن أتحسس بيدى الحسنة التى طالما أثارتنى ·· لا ·· لا · لقد كانت المقاومة ضربا من العبث ·· وأقسم أن أى مخلوق سواى ما كان يتردد أن يفعل ما فعلت ·

وأفقنا أخيرا ·· وأوصلتها بالقرب من دارها ·· ثم عدت الى الصيدلية ·

الصيدلية ! أية صيدلية تلك التى ينتظرنى صاحبها حتى هذا الوقت ! لقد طلب الرجل منى العودة بعد نصف ساعة ولكنى عدت

اليه بعد ساعة ونصف لا شك أنه قد مل الانتظار فأغلق محله على التذكرة وعلى الدواء ·

وأحسست بضيق شديد ·· ولكنى قلت اننا نستطيع الانتظار حتى الصباح ·· ثم عدت الى الدار ·· فوجدت الأم قد احتضنت الطفل وراحا فى سنة من النوم ·

وتمددت على فراشى ·· ولم تغفل عيناى الا بعد فترة طويلة ، ولست أدرى كم من الزمن غفلت عندما استيقظت على صوت بكاء ، وأبصرت الأم قد احتضنت الطفل بلهفة وقد ارتسم الألم والخوف على وجهها ، ورأيت ولدى قد راح فى غيبوبة ·· وسمعتها تسألنى فى صوت يقطعه البكاء : « أين الدواء ؟ » ·

ولم أستطع سوى الكذب فقلت : ان الرجل لم يستطع تركيبه الليلة ، وطلب الى أن أحضر لآخذه فى الصباح ·· وأمسكت بالطفل والألم يقطع نياط قلبى وأحسست بأنفاسه تضعف ، وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئا ·

وعدوت الى العربة لأحضر الطبيب ، أو لأسأله أن يكتب تذكرة أخرى ، ولكن عندما عدت واياه الى الدار صدمنى صراخ من داخل الدار ·· ثم علمت أن الأمر قد قضى ، وأن الطفل قد ذهب فى لمحة عين ·

لقد مات ابنى !·· ولست من السخف بحال أحاول فيها أن أوهم نفسى أننى قاتل ابنه ·· ولكنى لا أملك فى بعض الأحيان أن أسائل نفسى : لو أحضرت الدواء فى تلك الليلة أما كان يحتمل أن أنقذ حياته ؟ ثم أحاول أن أجيب نفسى : ان العمر بيد الله ، وأنه ما من بشر يستطيع أن يوقف فعل القدر ·· ولكنى أسمع صوتا خفيا يهمس فى نفسى قائلا : من يدرى ؟ ربما كنت استطعت انقاذه بالدواء ·· وأحس برجفة فى بدنى ورعدة فى قلبى !!

لقد فك من يدى أحد القيدين ·· فأحسست لفكه ألما شديدا وبكيته بدمع القلب ·· لقد كان وجوده يتعبنى ولكن ذهابه أضنانى ·· ترى أى شىء يرضى الانسان فى هذه الحياة ! ·

وصمت صاحبى ·· فأجبته هامسا بما ينطق به لسان حاله :

لا شىء ·· قتل الانسان ما أكفره !!

رجـــل مهـــرج

لم يكن أكثر من ممثل هزلى ·· أى مضحك مهرج ، يكتسب رزقه من استدرار الضحكات والتواثب أمام الناس كأنه فرقع لوز !!

ترى أى شيطان من شياطين الهوى دفع بالفتاة الى أن تتردى فى حبه ؟ أى ريح عاصفة هبت فألقت بالزهرة الناضرة الى الثرى وهوت بها الى الحضيض ؟

لو التمسنا العذر للفتاة ، وقلنا ان الحب جنون ·· وأن العاشق مجنون لا سلطان له على نفسه ولا سيطرة له على عقله ، وان لوثة الحب التى أصابت الفتاة فى سنها الطائشة قد أعمت بصيرتها ، فلم تر حرجا فى أن تقدم على الزواج من المهرج ·

أجل ·· لو التمسنا العذر للفتاة الصغيرة بأنها محبة عاشقة ·· ولا حرج على الأعمى والمجنون والعاشق ·

وهل تكون هى خيرا من صاحب الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ·· الذى ضحى بعرشه فى سبيل امرأة ؟ !

كل ذلك يمكن أن يكون عذرا للفتاة !!·· ولكن أى عذر يمكن أن نلتمسه لأمها هذه السيدة العاقلة الرشيدة الأبية المحافظة ، فى أن

توافق على الزواج بمثل هذه السهولة ·· فلا تحاول أن تنتهر فتاتها أو تسدى اليها النصح والارشاد ·

لم لم تحاول مرة واحدة أن تثنيها عن هـذا الزواج ·· وهى الواسعة الثراء ، الطيبة الأصل ، التى لا تنتظر لابنتها الا كل ذى جاه وسلطان ؟ ! ·

ماذا حدا بالمرأة الحكيمة أن تأخذ الأمر كأنه قضية مسلم بها ، فلا تحاول أن تبدى مجرد الضيق والاستياء ، حتى لكأنى بها راضية كل الرضا ، وأنها لم تكن تتوقع لابنتها زوجا سوى ممثل هزلى ؟

كل ذلك كان يطوف برأسى وأنا حائر لا أدرى له سببا ولا علة حتى خلوت بالأم ذات مرة ·· امرأة تبلغ من العمر نيفا وأربعين عليها مسحة من جمال وقور ، زاده وقارا ذلك الشيب الذى لم تحاول أن تخفيه بالأصباغ ·· فى حديثها طلاوة ، وفى لهجتها رقة ·

ولم يطل بى الأمر حتى أفرغت ما فى رأسى من أسـئلة حائرة ، ونظرت الى المرأة برهة ثم ابتسمت قائلة :

ـ حتى أنت ؟ · أنت الذى تضع الحب من كتابتك فى أولى مراتب الحياة ، تدهش أن أكون راضية عن ذلك الزواج ؟

وترددت برهة ثم أجبتها مستضحكا :

ـ فى الكتابة فقط !! فنحـن نحاول بالكتابة أن نهيىء لأنفسنا ناحية من الارضاء ، لا تهيئه لنا الحياة ، ولكن عندما تصطدم هذه الأشياء المثالية التى نكتبها بحقائق الحياة ·· نجدها قد انهارت ·· فزواج ابنتك من هذا الممثل يمكن أن يكون موضوعا لقصة ناجحة ، ولكن لو تتبعناه فى الحياة لرأيناه شيئا فاشلا ، فلقـد كان خيرا لابنتك أن تضرب بحبها عرض الحائط ، وأن تنتظر حتى تتزوج رجلا محترما ·

وأطرقت المرأة ، ورأيتها تكرر قولى فى شىء من شرود الذهن :

ـ تضرب بحبها عرض الحائط ، وتنتظر حتى تتزوج رجلا محترما !! تماما كما فعلت ·· لا ·· لا يا سيدى ·· لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ·

وصمتت برهة ثم بدأت تروى كيف لدغ « المؤمن » من الجحر أول مرة :

ـ كان ذلك منذ عشرين عاما وقد جلس قبالتى تماما كما تجلس الآن · وأخذ يقول لى « ان لكل انسان حلمه الذى يرغب فى تحقيقه ، ولكن ليس لكل انسان العزم الذى يستطيع به أن يحقق هذا الحلم ، وان أسعد الناس رجل وهب له الله العزم فاستطاع أن يجعل من أحلامه حقائق ، وأنى أحلم بأن أكون ممثلا ناجحا ·· ولا بد أن أكونه » ·

وأجبته بشىء من الحنق ·

ـ ليس هناك على وجه الأرض من يستطيع أن يقنعنى بأن اكون زوجة مهرج ·

ـ لا تقولى مهرجا ، بل قولى فيلسوفا ، ان الدنيا ملأى بالأحزان ، فهل هناك أقدر من امرىء استطاع أن يبدد من الدنيا بعض أحزانها ، وأن يهيىء للناس من الضحك ما يغسل به هم قلوبهم ؟ هل تسمين مهرجا ذلك الذى يستطيع السيطرة على نفوسنا فينتشلها من حلكة الضيق والتبرم ، ليغمرها فى أضواء الفرح والمرح ؟

ـ سمه ما شئت !! ·· ولكن عليك أن تختار بينى وبين التمثيل ·· أجل ·· انى لا أريد قط أن يسألونى أين زوجك ؟ فأقول قد ذهب ليضحك الناس !!

ولقد اختار التمثيل لا لأن حبه لى لم يكن عميقا جارفا ، بل لأن حبه للتمثيل كان قد ملك عليه حواسه وسيطر على جوارحه ·

اختار أن يكون ممثلا هزليــا . وهو الذى كان يستطيع أن يتم تعليمه فيصبح موظفا محترما كبقية خلق الله ، ولكنه ركب رأســه واندفع فى هوته ، وركبت أنا أيضا رأسى ، وعزمت على ألا أنزلق معه ، وأن أقطع كل علاقة لى به ، وأن أكبت حبى بين جوانحى حتى يذبل ويموت . فذلك خير لى من أن أكون زوجة مهرج ٠

لقد كنت أحب فيه فكاهته ومرحه وحلو حديثه ٠٠ أحب قدرته على أن ينتقل بى الى جو لا يمكن أن تحيا فيه جراثيم الأسى والحزن ٠٠ وكنت أحب منه صفاء قلبه ونقاء ذهنه ، ولكنى كنت أكره أن تكون تلك هى مهنته فى الحياة ٠٠ وأن يكون ذلك هو مورد رزقه ورزقى ٠٠ كنت لا أتصور قط أن يقف أمام الجماهير ليكون منهـا موضع الضحك والسخرية ٠

وهكذا انتزعه منى جنونه بالتمثيل ٠٠ وانتزعنى منه أنفتى وكبريائى ٠٠ فافترقنا وبنفسينا لوعة استطاع كل منا أن يخفيها فى صدره ٠٠ وسار فى طريقه ٠٠ وسرت فى طريقى ٠

ولقد أنكره أهله كما أنكرته ٠٠ واندفع فى طريقه الشائك المظلم ، ليس له نبراس ســوى قوة عزيمته واقتناعه بأنه فيلسوف وليس مهرجا ٠٠ وأنه يقوم بخير دور يمكن أن يقوم به انسان . وهو ازالة الهموم وتبديد الأحزان ٠

وسرت أنا فى طريقى ، قانعة راضية فى الظاهر ٠٠ فلقد استطعت أن أخفى من نفسى كل مظاهر الأسى واللوعة والخيبة فى الحب ٠ اللهم الا فى لحظات متباعدة كنت أخلو فيها الى نفسى فتنكأ الذكرى جرحى وتدمى قلبى ٠

وتزوجت زوجا لا أرى فتاة يمكنها أن تطمع فى خير منه ان كانت خالية القلب ٠٠ فلقد كان حسن الخلق ، مقبول المظهر ، واسع الثراء،

وظن هذه خير من صفات يود العقل أن تتوافر فى الزواج ·· العقل ·· لا القلب ·· لأننى كنت دائما أحاول أن أسحق قلبى ·· وأجعل عقلى مسيطرا على نفسى ·

واستمر العقل مسيطرا والقلب مكبوتا وأنا يخيل الى أننى قد انتصرت نهائيا ·· وأن حبى القديم قد عفا وعفت آثاره ·· حتى كان ذات يوم دعانى زوجى الى الذهاب الى أحد المسارح يقول ان به مسرحية كوميدية جديدة وان بطلها هو ممثل كوميدى حديث الظهور ، ولكن من شاهدوه يقولون عنه انه عبقرى ارتفع بالتمثيل الكوميدى من مرتبة التهريج الى مرتبة الفلسفة . وانه فيلسوف وليس بمهرج ·

وقبل أن يقول اسمه كنت أعلم سلفا أنه سينطق باسم صاحبى ·· فما كنت أظن هناك عبقريا سواه ·· ولم يخطىء حدسى ·· فقد كان هو ·· وأحسست برجفة عندما سمعت اسمه واعترتنى اذ ذاك هزة ·

ولو كانت لى الخيرة فى الذهاب لما ذهبت ، فلقد أقنعنى عقلى أنه من الخير ألا أذهب ·· فهو يخشى أن يستيقظ القلب من طول سباته ·· ويفيق من طول هجعته ، فيثور ويتمرد ، فيفلت منه الزمام وينطلق العنان ·

وذهبت الى المسرح !!

هل تستطيع يا سيدى أن تفهم مشاعرى فى تلك اللحظات قبيل رفع الستار ؟ · هل تستطيع أن تسمع دقات قلبى ؟ هل تستطيع أن تتبع ذهنى وقد شرد منى بين ربوع الماضى يرتشف من كؤوس ذكرياته ويستعيد لحظاته الهنيئة الممتعة ؟ هل تستطيع أن تتبع بصرى وقد ثبت على الستار وبوده لو استطاع أن ينفذ الى ما وراءه ليتعجل رؤية حبيب القلب ومنية الروح ؟

تلك اللحظـات التى أضحى العقـل فيهـا فى سبات عميق ·· أما القلب فقد كان فى يقظة تامة ·

ودقت الطرقة ثلاثة دقات . وأخذ الستار يرتفع رويدا رويدا ، وبدأت الرواية ·· وبعد فترة قصيرة ظهر هو على المسرح ، فاستقبلته الجماهير بعاصفة من التصفيق ·

ومضت فترة من الوقت وأنا لا أفهم ماذا يقول ، فقـد كنت فى اضطراب شديد ·· وتمنيت لو استطعت أن أنزل الى المسرح فأرتمى بين ذراعيه ، ثم بدأت أعود الى نفسى وأنصت اليه ، ورأيته هو هو ، بخفته ومرحه ·· ولطفه وظرفه ، ليس هنـاك أثر للتكلف فى كل ما يقول ، فكأنه لا يمثل بل كأنه يحيا فى دوره حياة طبيعية ، بفلسفته الساخرة الهازئة الزاخرة بالفكاهة ·

ووقع بصره على فجأة ، والتقت عيوننا وعراه اضطراب لفترة قصيرة ، ولكنه استعاد نفسه . وازدادت اجادته وبدا لى أن وجودى قد أسعده وملأه ثقة ، وغمرتنى نشوة ، وخيل الى كأن المكان قد خلا الا منى ومنه ·

وانتهت الرواية أخيرا وأحسست بانتهائها أن مقاومتى قد انهارت تماما ، فقد عاودنى قديم حبى كأعنف ما يكون · ، وأحسست بالندم على انسياقى وراء سخافات العقل ، وعلى تمسكى بتفاهات الأنفة والكبرياء ، وعلى تسرعى بالزواج · ولم أعد أتمنى شيئا الا أن أطلق من زوجى الحاضر الذى يجلس بجوارى ، والذى لم أحس له وجودا طوال الساعات الثلاث الماضية ، لأرتمى تحت قدمى صاحبى حتى نهاية العمر . وليقل عنى الناس زوجة مهرج وليقولوا عنى حتى زوجة لص أو شحاذ ·· فماذا يهمنى مما يقول الناس ، ما دمت أنا ناعمة بجواره ؟

ورغم كل ما طاف برأسى من أفكار ورغبات ، فانى لم أملك الا أن

أعود ·· أعود مع زوجى الى الدار فى هدوء وسكون ، دون أن يلحظ أثرا لتلك الثورة التى تعتمل فى نفسى ·· اللهم الا ذلك الوجوم الذى اعترانى والذى اعتذرت عنه بصداع ألم بى

وكما نكأت رؤيته جرحى فقد نكأت رؤيتى جرحه ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن يحاول كلانا أن يلتقى بالآخر ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، وتم اللقاء ·

التقينا ·· وكأننا نصفان لانسان واحد ·· أبعد بينهما الدهر حينا ·· فكان كل منهما نصف ميت ولما أعيد أحدهما الى الآخر جاشت فيهما الحياة ، وردت الروح ·

قلت انى نادمة ، وانى على استعداد لا لكى أصبح زوجة مهرج فقط ، بل على استعداد لأن أسرح « نشحت » سويا ، وقال انه نادم ، رغم ما أحرزه من مجد وما بلغه من نجاح ، لأنه ما شعر قط بطعم المجد ولذة الانتصار ·· فما قيمة انتصار المرء اذا لم يستطع أن يهدى ثمرة انتصاره الى من يحب ؟

وتناجينا ، وتباكينا ، وافترقنا ، والتقينا مرة وثانية وثالثة ورابعة ، وفى كل مرة يلج بنا الشوق وتستعر اللهفة

وحاولنا أن نتدبر أمرنا ، ولكن المشكلة كانت عسيرة فلقد كنت زوجة ·· وكنت حاملا ·· وأكثر من هذا كان هو الآخر زوجا ، فلقد وجد من سواى من رضيت بأن تكون زوجة مهرج ، وكانت هى الأخرى حاملا

أجل يا سيدى ·· لم تكن المسألة من السهولة بحيث يقبل أحدنا على الآخر لمجرد رغبته فى ذلك ، فقد كان وراء كل منا عبء ثقيل ·· ولم يكن الأمر يقتصر على زوجى وزوجته ، بل على ولدينا المنتظرين·

كيف أطلب من زوجى الفراق ، وأنا أحمل ابنه فى أحشائى ، وكيف يترك هو زوجته ومعها حشاشة كبده ؟

لننتظر فما كنا نملك سوى الانتظار ، لننتظـر حتى أضع أنا ، وتضع زوجته ، ولنتدبر بعد ذلك أمرنا ٠

ووضعت ابنتى ، ومرت بى الأيام وأنا مشغولة بها ، برضاعتها والعناية بها والسهر عليها ، والتقيت به بعد فراق شهور وعلمت منه أن امرأته وضعت طفلا ٠٠ وأخذ يحدثنى عنه طويلا ٠٠ فلقد كان يحبه كما كنت أحب ابنتى ٠

ولا شك أن حبنا لطفلينا قد خفف من حدة حبنا بعض الشيء ، ولكن لم يكن لهذا الحب أن يذهب ٠٠ أبدا ٠٠ فلقد كان كما هو ، ولكن اللهفة قد خفت بعض الشيء ٠٠ وصرنا أكثر تعقلا وروية ، ولم يعد بنا ذلك الطيش الذى كان يسهل على كل منا أن يترك زوجه ، وأصبحنا أكثر قدرة على الصبر والتحمل ٠

وتشاء الأقدار أن يتوفى الله زوجى ، ورغم حزنى عليه فاننى شعرت باحساس خفى يدفعنى الى شكر القدر على فعلته فقد خيل الى أن القدر ينوى أن يحبك قصته وأن يختمها خير خاتمة ، وأحسست بهاجس ينبئنى أنه لم يبق على الخاتمة غير وفاة زوجته ، وما ذلك على القدر ببعيد فيخلو لنا الجو بعد ذلك وتصفو الحياة ، ونستمتع بأطفالنا ، وبالثروة التى تركها لنا زوجى ، وبالمجد الذى أصابه هو ٠

أجل يا سيدى ، هذا ما كان يجول بخاطرى ٠٠ ولست أنكر أنها كانت هواجس لا تخلو من السوء ، ولكنها كانت تصور كل أمنياتى ٠

ولكن القدر الأحمق سخر منى ، فلم يجد حبك القصة ، وختمها شر خاتمة ٠٠ خاتمة لم تكن تخطر لى قط على بال ٠٠ اذ لم تكد تمضى على وفاة زوجى بضعة أسابيع حتى حمل الى الناعون ٠٠ لا نبأ وفاة زوجتى ٠٠ بل خبر وفاته هو ٠

أى صاعقة انقضت على فتركتنى حطاما ؟ ٠ لقد كنت أتوقع كل

شيء الا موته ·· لقد أحسست بالحياة تظلم من حولى وشملنى شعور بالوحدة والوحشة ·

ومرت بى الأيام بعد ذلك كئيبة مملة ، وشبت طفلتى فملأت على فراغ حياتى ولم أعد أبصر فى الحياة سواها ·· فهى عزائى وهى سلوتى !!

هل تستكثر على بعد ذلك أن أتركها تتزوج بمن أحبت ؟

ولم أجب ، وران الصمت بيننا لحظة ، ثم أردفت قائلة :

ـ خاصة ·· اذا كان من أحبت هو ابن من أحببت طيلة حياتى ·· ابن الرجل الذى افسدت حياتى وحياته لأنى رفضت أن أكون زوجة مهرج !!· اتريد منى بعد ذلك أن أفسد حياة ابنتى وابنه ؟ أتريد أن ألدغ من جحر مرتين !! لا يا سيدى !! لا ·· لقد علمتها عندما يسألها الزواج أن تقول له نعم ، لأنها لا ترى فيه الا فيلسوفا يبدد عن الدنيا احزانها ، ويهيىء للناس من الضحك ما يغسل به هم قلوبهم ·

رجـــل مضىء

حدثنى صاحب القصة ، قال :

كنت أراها في بقعة نائية على الشاطىء ، وحيدة لا تفعل شيئا سوى الحملقة فى البحر صامتة ساكنة لا تكاد تكلم أحدا أو يكلمها أحد ، فكأنها هاربة من ضجيج الناس وضوضائهم ، لائذة بالوحدة الموحشة وبالسكون السائد ٠

ولم أكن أستغرب ميل امرىء الى العزلة وحنينه الى الوحدة ، فقد كنت أنا نفسى كثيرا ما أفكر فى أن أفر من الناس لاجئا الى بقعة نائية خالية ، فى روضة أو صحراء أو على شاطىء بحر ، ولكن الذى استغربته من الفتاة وهى زهرة متفتحة أن تهفو الى الوحدة وتفر من اللهو ٠٠ كأنها عجوز أجهدتها الحياة ٠

ولسـت أدرى هل كان حب الاستطلاع هو الذى دفعـنى الى الاهتمام بها وهل كانت رغبتى فى الاقتراب منها والحديث معها ، هى رغبة أى انسان فى اكتشاف امر غريب لم يتعوده ، أم أن الفتاة نفسها كان بها نوع من السحر والفتنة دفعنى الى أن أجعل منهـا ما يشغل رأسى ويسيطر على تفكيرى ٠

على أية حال ، لقد وجدتنى أتخذ مجلسى على مقربة منها فى

صمت وسكون ، ارقبها خفية متظاهرا بقراءة كتاب فى يدى ، وكنت اشهدها تعبث فى الرمال بعصا فى يدها ، ثم تسبح ببصرها فى الأفق البعيد وفى جوف الماء ٠

ولم أكن اقضى بجوارها سوى فترات قصيرة ، فقد خشيت أن يثقل عليها وجودى ، وأن اضيع عليها متعتها فى الوحدة ٠

ومرت الأيام ، فاذا بحنينى الى الفتاة يشتد ٠٠ وبدأت أحس انها قد ملكت زمام نفسى ، وشاورت قلبى فى أمرها فأشار على أن اتقدم اليها وأحدثها ، وبت ليلتى أحضر ما سأقوله لها ، والرد على ما سوف تقوله لى ، واستيقظت فى الصباح وكأنى مقبل على أمر جلل ، وأخذت أستعيد ما لقنته نفسى طوال الليل ٠

وتقدمت الى نهاية الشاطىء فلمحتها جالسة فى مكانها ٠٠ وأحسست قلبى يخفق بشدة واقتربت منها فى خشية وتردد ، وشعرت بوقع أقدامى فالتفتت الى ، وحييتها فأجابت تحيتى بصوت عذب رقيق ٠٠ ثم استأذنتها فى أن تسمح لى بالجلوس الى جوارها ٠ فلم تمانع ٠

وبحثت فى ذهنى عما قد حفظته من أقوال فاذا بها قد تبددت ، وأخذت انظر اليها من قريب ٠٠ فغمرتنى نشوة عجيبة ٠٠٠

كانت مخلوقة رقيقة مرهفة ٠٠ وكان وجهها دقيق التقاطيع ، صافى البشرة ، وقد عقصت شعرها الذهبى فى مؤخرة رأسها وكانت ترتدى بلوزة بيضاء ديكولتيه ، أبرزت عنقها العاجى ، وجونيللا قصيرة من الصوف الأحمر وحذاء خفيفا أبيض ٠

وبدأتها الحديث بعد فترة صمت :

ــ أخشى أن أكون قد ضايقتك ٠٠ انى لم استطع أن أقاوم رغبتى فى الحديث معك ٠ كنت أكتفى من قبل بالجلوس على مقربة منك ، ولكن الانسان شديد الطمع فاعذرينى ٠

وضحكت الفتاة قائلة :

ـ لا أظن هذا طمعا فأى مخلوقين تجمعهما بقعة خالية كهذه ، لا بد أن ينتهى بهما الأمر الى التعارف ·

ـ أما من ناحيتى أنا فقد تعرفت بك من مدة طويلة ، ويخيل الى أن هناك تآلفا بين روحينا يجذب كلا منا الى الآخر ، أو هذا على الأقل هو ما أحس به ·

وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ثم رأيتها تضع يدها اليمنى على ركبتها ، وبدا لى أن هذه الحركة منها لم تكن عفوا ، فقد لمحت فى اصبعها خاتم خطوبة ، ولم أشك اذ ذاك فى أنها تقصد أن تلوح لى به ·

ولست أنكر أن حركتها هذه قد أصابتنى بخيبة أمل شديدة ، ولكنى حاولت جهدى ألا أجعل مظهرها يبدو على وجهى ، وتشاغلت بالعبث فى الرمال ، وحاولت أن أجد موضوعا أغير به مجرى الحديث ، ولاحت فى الأفق سفينة صيد شراعية تظهر وتختفى بين الأمواج ·

وأشرت الى السفينة وقلت فى شىء من الدهش :

ـ ماذا حدا بالسفينة الى أن تندفع فى عرض البحر هذا الاندفاع ؟ ! انى لا أكاد أبصرها ·

وأجابت ببساطة :

ـ لا شك أن الصيد هناك وافر ، لقد تعودت دائما أن أبصرها تبتعد حتى تختفى عن البصر ·

ـ انظرى ، ها هى ذى قد ظهرت ثانية ·

ونظرت الى الأفق ، ثم هزت رأسها قائلة :

ـ أنا لا أبصرها ·

ومددت يدى ، وأشرت بأصبعى فى اتجاه السفينة التى بدت فى الأفق كأنها نقطة بيضاء ، ثم قلت لها :

ـ ها هى ذى · ألا ترينها ؟
وهزت رأسها ببطء مرة أخرى قائلة :
ـ لا · لا أراها ·
ـ لقد اختفت ثانية ، دعينا منها ·
وران الصمت بيننا برهة ، ثم قالت الفتاة :
ـ هل تعودت أن تحضر الى هنا كثيرا ؟ ! ·
ـ منذ ابصرتك ·
فضحكت وسالتنى :
ـ اذن فلست تحب المكان نفسه ، أنا لا أوافقك على ذلك ، فان لى ولعا به منذ الصغر ·
ـ كأنى بك قد جاوزت الصغر ·· انك لا تزالين طفلة ·
ـ الا ترى منى أكثر من هذا ؟
ـ بل أرى ·
ـ ماذا ! ·
واجبتها من أعماق قلبى :
ـ أرى منك معجزة خارقة !!

وتدرج بنا الحديث دون أن ندرى ، ومر الوقت كأنه البرق ، ونظرت الى الساعة فى يدى فاذا بعقربيها قد قطع من الزمن ساعتين فى ثوان معدودات ، وتذكرت أنى على موعد هام ووجدت نفسى مضطرا الى مفارقتها ·

وأحسست أن فراقها أمر عسير على ، وخيل الى أنى قد ارتبطت معها برباط وثيق ، ولكنى نهضت فى النهاية وشددت على يدها ، ثم سالتها :
ـ هل أراك فى الغد ؟
وهزت راسها ، وقالت :

ـ يحتمل ...

وغادرتها وسرت فى طريقى بخطى ثابتة متثاقلة وبودى أن أعود اليها ، وقبل أن أنحرف فى الطريق التفت برأسى لألقى عليها نظرة أخيرة ، فرأيتها قد أدارت رأسها وأخذت ترقبنى .. ووقفت فى مكانى ورفعت يدى ألوح لها بتحية أخيرة .

وأحسست بخيبة أمل ، فانها لم تجب تحيتى .

وعندما أخلدت الى نفسى فى المساء وجلست فى شرفة الدار أرقب النجوم ، وكنت أستعيد كل ما حدث ، وأحلل كل ما قالته وكل حركة أتت بها ، ولم تفارق صورتها مخيلتى بشعرها الذهبى ووجهها الرقيق .

لقد أقنعت نفسى بأنها أقبلت على ، وأحاطتنى بجو من الصداقة والثقة ، وأن حديثى معها قد سرها وأنى قد وقعت من نفسها موقعا حسنا ، فقد استطعت أن أغمرها فى جو من المرح والسرور ، وأحسست من ذلك بنشوة ومتعة .

ثم تذكرت بعد ذلك خاتم الخطوبة الذى كان فى يدها ومحاولتها التلويح لى به ، فقلت لنفسى : لعلها لم تقصد شيئا .. أو لعله لم يكن خاتم خطبتها .. ولكن عندما استعادت نفسى صورتها ، عدت فأقنعتها أن الفتاة قصدت بلا شك اشعارى بأنها مخطوبة .

وشرد بى الذهن برهة .. ثم استقر فجأة على أمر جعلنى أحس برجفة تسرى فى بدنى أمر استطعت أن أستجمعه من عدة صور متتالية مرت بالذهن .

صورة العصا الطويلة فى يدها تعبث بها فى الرمال ، وصورتها أخيرا وهى تتبعنى ببصرها فاذا ما لوحت لها بيدى لم تجب على تحيتى .

وأحسست بالعرق البارد يتصبب على جسدى

كيف غاب عنى أن الفتاة لا تبصر ؟!٠

انها لا شك ضريرة !٠

وشعرت برغبة فى البكاء من أجلها ، وأحسست أن حبى قد تضاعف ٠ وعصف بى الحنين اليها ٠٠ وودت لو استطعت أن أقضى العمر راكعا عند قدميها ٠

وفى اليوم التالى وجدتها فى مكانها ، وكأنما كانت تنتظر قدومى فقد التفتت الى عندما أحست وقع قدمى وحيتنى فى لهفة ظاهرة ، وجلست بجوارها وأمسكت يدها فضممتها بين يدى ٠

وصمت كلانا برهة من الوقت ، وأنا أرمقها وهى تسبح ببصرها فى الأفق البعيد ٠٠ وخيمت على وجهها سحابة من قلق ٠٠ وبدا لى أنها قد أحست أننى أعرف !

وقلت لها هامسا وكأن فى حلقى غصة :

ـ انى آسف ، عندما أشرت الى السفينة بالأمس لم أكن أعرف ٠٠ انى لم أعرف حتى خلوت الى نفسى فى جوف الليل واستعدت كل ما فعلته ٠

وأجابتنى فى صوت خفيض وهى ما زالت شاردة :

ـ لقد أخطأت ، وكان يجب على أن أنبهك . ولكن كان هناك شيء فى صوتك لم أسمعه منذ زمن بعيد ولم أرد أن أخبرك فأحرم نفسى متعة ٠ هل فهمت ؟

ـ وهل لا يزال هذا الشيء فى صوتى أم ترينه قد ضاع ؟

فأجابت فى صوت ملؤه الحزن :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ انه لا يزال كما هو ٠

وقلت لها :

ـ أنت اليوم والأمس عندى سواء ، لم يختلف الأمر قيد أنملة ٠٠ هل تصدقينني ؟

ـ لا ٠٠ هذا أمر يسهل عليك قوله الآن ٠٠ أما بعد ذلك فلا ٠

ومددت يدى فلمست خاتم الخطوبة فى يدها وسألتها :

ـ ما حديث هذا ؟

ـ ليس هناك كثير يقال ، لقد خطبت ، ثم أصبت بما أصبت به ، وسأرحل بعد أيام مع والدتى ٠٠ لاجراء عملية قد تنجح وقد لا تنجح ، فاذا نجحت فسنتزوج ٠

ـ واذا لم تنجح ، هل سيتركك ؟

ـ لا أظن أنّ هناك من يرغمه على زواج فتاة ضريرة ؟

وأمسكت بيديها ودفنت فيهما وجهى ، ولم أستطع أن أمنع سيل الدمع الذى انهمر من عينى ، وقلت لها فى صوت مكبوت :

ـ اذا لم تنجح فستتزوجينني ، وسأجبرك على ذلك ٠

وساد الصمت بيننا برهة ورأيتها قد استغرقت فى التفكير ثم همست الى قائلة :

ـ دعنا من هذه الأحاديث الحمقاء ٠

ـ لست أحمق ٠ هلا تستطيعين أن تحسى ايمانى بأنى أريدك كما أنت ٠٠ ليس هناك أقل فارق بينك مبصرة ٠٠ وضريرة ، اللهم الا اذا كنت أنت لا تريدينني ، ولا تؤمنين بى ، أنا لست قبيحا ، وأؤكد لك أن أمامى مستقبلا زاهرا ، وأستطيع أن أهيىء لك عيشا رغدا ٠

وأحسست أصابعها تتحسس وجهى وشعرت من ذلك برعدة سرت فى جسدى ، ثم سمعتها تتمتم قائلة :

ـ تماما كما أتخيلك ٠٠ نفس الأنف ، ونفس الشفتين ، لا تختلف فى شىء عما رسمت لك فى ذهنى ٠

وصمتت برهة ندت عنها تنهيدة حارة وأردفت قائلة :

ـ أية متعة وهبتها لى بالأمس ·· عندما جلست الى وعلمت أنك لا تعرف ؟!· لقد منحتنى شيئا ظننت أننى فقدته الى الأبد ولا أظننى أستطيع الحصول عليه ثانية ·

ـ لا تقولى هذا · انك تخافين العطف وتخشين الشفقة ، وأؤكد لك أني لا أحس لك شفقة ولا عطفا · ان ما أحسه هو الحب ، الحب العميق الفياض · أتفهمين ما هو الحب ؟ انى أحبك الى الحد الذى أتمنى فيه ألا تنجح العملية · وأن تبقى كما أنت ·· حتى تكوني لى وحدي ، فهل لا تزالين تظنين أن ما بى شفقة وعطفاً ؟ !

ولم تجب فقد عصفت بها نوبة من البكاء ورددت لنفسى ما قلت ، فأحسست قسوته وشعرت بخجل شديد وأخذت أربت على يدها وقلت لها أستغفرها :

ـ انى آسف ·· أنا لا أقصد ما قلت ·· لقد دفعنى اليه فرط حبى لك ·

ورفعت الى عينيها المغرورقتين وهمست قائلة :

ـ علام الأسف ·· ما قال لى انسان خيرا مما قلت ، فانى أعرف لم قلته ·

ـ ولكنها أنانية منى ، وأنا لست أنانيا الى هذا الحد · ثق أنى سأدعو الله ليل نهار أن يعيد اليك بصرك ، فاذا لم يستجب دعائى ، فانك لى وسأرغمك على زواجى ·

ـ لقد عدنا الى الحماقة مرة أخري !

ثم حاولت أن تغير مجرى الحديث بقولها :

ـ ألا ترى سفينة الصيد تظهر وتختفى ؟ !

ورفعت بصرى الى الأفق فرأيت السفينة تلوح فى أقصاه فقلت ضاحكا :

ـ أجل ·· انى أبصرها أمامى كأنها نقطة بيضاء ·

ـ خبرني ماذا تبصر أيضا · يخيل لى أن الشمس مشرقة ساطعة ، فانى أشعر بحرارتها ، وأحس أن البحر هادىء ، فانى لا أكاد أسمع صوت الموج ، وأشعر بخفة النسيم على وجهى · انى لا أزال أستطيع التمييز بين الظلمة والضياء ·· وفى ذاكرتى كثير من جمال المكان ، وأبصر أشياء كثيرة بعين الوهم والخيال ، خبرني عما ترى ؟

ولاحت فى ذهنى فكرة عجيبة ·· وساءلت نفسى لم لا أحاول أن أعوضها عن ضوء عينيها ؟ ولم لا أكون أنا عينيها ؟ وارتحت لهذا الخاطر وأنعمت البصر فيما حولي ، وبدأت أتحدث :

ـ انى أبصر نفس ما تحسين ·· البحر الواسع المنبسط ، يترجرج فيه الموج ، وتتهادى الموجة فيه وراء الموجة ، حتى تصل هنا الى رمال الشاطىء فتتكسر وتنبسط ·· وتطويها الرمال فتفنى كأن لم تكن ، وتتبعها أخرى وغيرها ، وهو يقذف والرمال تطوى ، فلا هو سئم القذف ولا هى ملت الطى ، وحولنا قد انبسطت الرمال لا أكاد أبصر فيها سوى آثار أقدامنا معا ·

ـ ماذا تبصر فى أقصى اليمين ؟

ـ بروز فى الشاطىء عند سراى المنتزه قد تكاثفت فيه الأشجار ·

ـ هل ما زالت هناك المئذنة تعلو من بين الأشجار ؟

ـ أجل ·· أجل ·· ما زالت كما هى ·

ـ ومجموعة النخيل المتناثرة ؟

ـ كما هى ·

ـ والصخرة ؟

ـ ما زال الناس يعتلون صهوتها مرحين عابثين ، ومركب خفر السواحل كما هو يقفز الصبية من فوقه الى الماء والحارس ما زال نفخ فى صفارته لينهاهم عنه !! ·

ثم رأيتها تستغرق فى الصمت ، وبدا أن ذهنها قد شرد فقلت لها

ـ فيم تفكرين ؟

وهزت راسها ببطء واجابت هامسة :

ـ كنت اتمنى لو التقينا قبل أن يحدث لى ما حدث ٠٠ لقد ملأتنى بالأمل وأعدت الى نفسى ما تبدد من الايمان ٠٠ واضأت لى فى حناياك بارقة تهدينى سواء السبيل ، فأشرقت الدنيا من حولى بعد ظلمة ، لقد كنت أحس انهيارا تاما فجعلتنى أتمالك وأتماسك ٠٠ اننى أستطيع الآن أن أقف على قدمى ٠٠ وأن أواصل السير فى الحياة ٠٠ لقد علمتنى أن الانسان قد يغنيه عن ضوء عينيه ضوء قلبه ٠

وافترقنا بعد ذلك ، ولأول مرة عرفت أن السهد قد يصيب الانسان من فرط سعادته كما يصيبه من فرط شقائه !

ورحلت بعد ذلك فلم استطع لقياها ، ولم يكن أمامى سوى الصبر والانتظار ٠

ماذا كنت أنتظر ؟ ٠ وماذا كنت أخاف وأخشى ؟ اننى بشر ٠٠ بشر يحب ٠٠ لا بقلبه فقط ٠٠ بل بكل ذرة فى جسده ٠٠ انى أحس انها منى ، فهى فى رأسى ، وفى قلبى وفى جسدى ٠٠ لقد فارقتنى ، وما فارقتنى ، فانى اراها فى كل ما أبصر ، وأنصت اليها فى كل ما أسمع ، وأحس بها فى كل ما افعل ٠٠ سامحنى الله ٠٠ هل أجسر فأقول اننى كنت ادعو الله أن يشفيها وفى قرارة نفسى كنت أتمنى الا يفعل ؟ هل اجسر أن اقول اننى ٠٠ انا الذى كنت أتمنى لو استطيع أن أهب لها ضوء عينى ، كنت أخشى أن يرد اليها بصرها فأفقدها !

وطال بى الانتظار وانا لا افعل شيئا سوى الجلوس فى المكان الذى كانت تجلس فيه ، كلما مضى الوقت زادت خشيتى ٠٠ حتى اقبلت ذات يوم فلمحتها فى مكانها ٠

وعرتنى اذ ذاك هزة ٠٠ وانتفضت من قمة راسى الى اخمص قدمى ، وتلاحقت أنفاسى ، واشتدت خفقات قلبى وأخذت اقترب منها٠

هل شفيت ؟ ! لقد دعوت الله طويلا أن يشفيها ٠٠٠ ليت الدعاء لا يستجاب ٠

وكانت مولية وجهها شطر البحر ولمحت في يدها العصا تعبث بها فى الرمال وكان فيها الجواب ٠

سامحنى الله ، وشكرا لله ، الذى لم يستجب دعائى ٠

واحسست بوقع قدمي ، فالتفتت الى ولمحت فى وجهها ابتسامتها الحلوة وجلست بجوارها وكأننا لم نفترق لحظة ٠

وأمسكت بيدها الصغيرة فى يدى فوجدتهـا قد خلت من خاتم الخطوبة فغمرنى احساس من السعادة وقلت لها :

ـ سنتزوج فى أقرب فرصة ٠ كم كنت أخشى الا تعودى ٠٠ وكم كنت حائرا فى تمنياتى ، بين أن تشفى والا تشفى ؟ كنت أتمنى أن تشفى والا تشفى ؟ كنت أتمنى أن تشفى حتى يعود اليك ضوء عينيك ، وأتمنى ألا تشفى حتى تعودى أنت الى ؟٠

وأطرقت ، ثم أجابت هامسة :

ـ لم يكن هناك داع لهذه الحيرة ٠٠ فقد كنت عائدة عائدة ٠٠ شفيت أم لم أشف ٠

ـ كيف ؟ !

ـ لقد ذهبت اليه قبل أن أذهب الى المستشفى ، وأعطيته خاتمه ، فقد ملكت أنت مشاعرى وملأت نفسى ٠ لقد قلت لى انك لا ترى هناك فرقا بينى مبصرة وبينى ضريرة فعزمت على أن أكون لك مبصرة ، أو ضريرة ٠

ورفعت يدها الى فمى فمسستها بشفتى وهمست قائلا :

ـ أرجو ألا يكون قد أحزنك فشل العملية ؟

ـ ما أحسست من فشلها قط بأى حزن ولا خيبة ٠٠ لقد كانت مجرد خيط واه تعلقت به ، حتى لا أهوى ٠٠ وكانت مجرد أمل براق

تعللت به ، حتى لا أقضى من اليأس .. ما حاجتى اليه الآن وقد تبدد اليأس واستبدلت بخيط الأمل الواهي حبلا متينا من حبك وايمانك؟

وأمسكت بيدها وضممتها الى صدرى وهمست فى أذنها :

ـ نستطيع أن نكون شركاء فى ضوء عينى ولو خبا هذا الضوء عندى .. فلا خوف علينا . ان القلوب المضيئة ، لا يمكن أن يتعثر أصحابها فى ظلمات الحياة .

رجل خاطئ

حدثنى الصبى وقال :

ـ وأخيرا ، وجدت أبا !

انى أحس بالهدوء والراحة ·· لم يعد هناك ما يبعثنى على أن اسير بين الناس كسير النفس ، مهيض الجناح ·

لم أصبح بلا أب ·· فلقد وجدت أبا ·

هل تدرى ما معنى أن يكون الانسان بلا أب ؟ انى لا أقصد أن يكون يتيما فاليتيم له أب قد مات . وموت الآباء لا يشين بنيهم ، فقد كانوا أحياء يوما ما . فلما ماتوا خلفوا لأبنائهم اسمهم وذكراهم ، أما الذى يضير الابن فهو ألا يعرف له أبا قط ، ويحز فى نفسه أن يسأل : أنت ابن من ؟ فلا يعرف الا أنه ابن أمه ·

أنا ابن حرام يا سيدى ·· أو هكذا يقولون عنى ·· ولست أدرى لقولهم معنى ، ولكنى أعرف أنهم يقولونه لى على سبيل التحقير والازدراء ·· وأنهم يسبوننى به ·· ولست أدرى لم يسبوننى ، ولم يقولون عنى ابن حرام ·· ان كل ما فعلته هو أنى وجدت فى هذه الحياة ·· كأى كائن حى ضئيل حقير ·

لقـد وجـدت نفسى موجودا فعشت . فما ننبى حتى يسـبونى وينعتونى بابن الحرام ؟ . أما كان خيرا أن ينعتوا الرجل الخاطىء بأبى الحرام والمرأة الضالة بأم الحرام .. بدلا من أن يصبوا مقتهم على المسكين الذى لم يرتكب اثما فيسخروا منه فى كل لحظة ويقولوا انه ابن حرام ؟

انى لأنكر أنى منـــذ أدركت الحياة .. وأنا موضـع ازدراء وسخرية ، ولست أدرى كيف كان أولاد الحــلال يعرفون أننى ابن الحرام .. لقد كان أمرى يسرى بينهم كالبرق .. ان الناس أشرار يا سيدى ، جبلوا على حب الشر والأذى ، وانطوت نفوسهم على الخبث والضعة . لشد ما أمقتهم فانى لم أصادف منهم عطفا ولم ألق حدبا .

أذكر كيف ذهبت الى الكتاب لأول مرة وقد أخذتنى أمى بيدها وأنا أهرول بجوارها .. هى بملاءة اللف السوداء .. وأنا بالجلباب والحذاء والطربوش اللذين ارتديتهما يوم ذاك فقط .

تركنا حجرتنا بعد أن أغلقت أمى الباب بالمفتاح وبعد أن أوصت جارتنا أن « تأخذ بالها » من الحجرة حتى تعود ، فقد كانت المرة الأولى التى تغيب فيها عن الحجرة لأنها كانت دائما تتركنى ألهو أمام الباب عندما تذهب الى دور عملائها لتقـوم بحياكة ثيابهم ، أو لتبيعهم بعض ما تتجر به من مناديل وحلى .

وعبرنا شارع زين العابدين سائرين فى شارع سليم حيث كنا نقطن فى نهايته من ناحية جبل الجيوشى حتى وصـلنا الى شـارع النواوى والوقت ما يزال مبكرا والباعة لما يفتحوا حوانيتهم بعد ، اللهم الا ذلك الرجل صاحب البليلة والفول الذى اتخذ مكانه على ناصية شارع ممتاز فقد كان منهمكا فى العمـل وقد اجتمع حوله الغلمان والصبية وأخذ يقلب البليلة بكبشـته الخشبية ، واختفت

معالم وجهه وراء سحب البخار المتصاعدة من القروانة ، وبجوارها بدت قدرة الفول النحاسية الحمراء اللامعة متكئة على جانبها ٠

مررنا بالرجل وتجاوزناه وما زالت ترن فى أذنى أصوات الصبية الملتفين حوله صائحين : « بمليم بليله يا عم فضل » ، « بتعريفه فول وزيت » ، « بنكله بليله ، وبتلاته مليم فول » ٠

وكم كان بودى لو وقفنا عنده برهة فتناولنا شيئا من البليلة ولكن أمى كانت ممعنة فى السير ، ولم أحاول أن أطلب منها الوقوف فقد علمتنى التجارب ألا أطلب شيئا ، وأن أقنع بما أعطى ٠

وصلنا أخيرا أمام باب الكتاب أو باب المدرسة ٠٠ مدرســة الاجتهاد الأولية ، ووقفنا برهة حتى أصلحت أمى ملاءتها وبرقعها ، ثم دلفنا الى الداخل ٠

كان يتملكنى وقتذاك شعور مزيج من الرهبة والخشية ، رهبة الاقدام على شىء جديد مجهول ، وخشية البقاء وحيدا فى المدرسة ، فقد علمت أن أمى ستتركنى وتذهب ٠٠ وأنا أخشى النـاس كثيرا وأتوجس منهم خيفة دائما ٠

كان باب المدرسة يؤدى الى ممر ضيق مظلم قد قامت على جانب منه حجرة الناظر ، وبدا فى نهاية الممر فناء رحب تفرق فيه بعض الصبية يلهون ويعدون ، وبعث منظرهم فى نفسى شيئا من العزاء والطمأنينة فقد ايقنت انى بعــد لحظات ساندمج فيهم ، والهو كما يلهون ٠

وبعد لحظة اقبل كهل أسود بالى الثياب ، عارى القدمين ، علمت فيما بعد أنه عم شمط فراش المدرسة ، وحدجنا فى ضيق وتبرم وسأل أمى فى حنق :

ــ نعم ؟

ولم أدر سر هذا العداء الذى لاقانا الرجل به ، ولكنى أرجعته الى

طبيعة السوء والشر الكامنة فى نفوس الناس ٠

وأجابت أمى فى صوت رقيق :

ـ حضرة الناظر موجود ؟

ولم يجب الرجل بل دفع بقدمه الباب فانفتح على مصراعيه وقال :

ـ ادخلى ٠٠ أهو مرزى قدامك ٠

ودخلنا على الناظر ، الشيخ عبد الرسول ، وأقبلت عليه أمى تحييه باحترام ، ووقفت أنا بباب الحجرة مطأطىء الرأس فى خشية ورهبة ، أقلب البصر بين آونة وأخرى ، فاحصا بعينى الرجل والمكان ٠

رأيت الرجل متربعا على أريكة قذرة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء حمراء ، وأخذ يحملق بحفرتى عينيه الفارغتين ، ويتنخم ، ويسعل ، ويبصق ، ويمسح أنفه بظهر يده ، وفى اليد الأخرى مسبحة يحرك حباتها بين أصابعه ٠

ورأيت والدتى تقبل يد الرجل ، ثم تجلس على مقعد خشبى أمامه ، ولا أدرى ما دار بينهما من حديث ، فقد شغلنى عنهما مراقبة صرصار مقلوب فى ركن الغرفة وحوله النمل يجره الى جحر فى أرضها ، ولم أنتبه الا ووالدتى تفتح منديلها فتخرج منه بعض النقود تقدمها للشيخ ، ثم تنهض مودعة ٠

وسمعت الشيخ يصيح بشمط ، ويأمره بأخذى الى الداخل ٠٠ وسحبنى الكهل الأسود من يدى ودفعنى الى الفناء فوقفت فى وسطه حائرا مشدوها ٠

مضت بى الأيام الأولى فى مدرسة الاجتهاد ، وأنا تائه ضال ٠٠ مغرق ٠٠ لا أكاد أفهم شيئا مما حولى ٠٠ أحمل لوح الصفيح تحت ابطى فى الذهاب والاياب ، وأدخل الفصل ، فأجلس بين الصبية شارد الذهن غارب البال ، واتضح لى أن الشيخ عبد الرسول هو كل ما فى المدرسة من مدرسين وأساتذة ، وأنه اذا ما طرأ عليه طارىء

حل شمط محله وتلقى العبء عنـه ، فقـام بكل أعمـال النظارة والتدريس الى جانب أعماله الأصلية من فراشة وكنس ورش وتوريد أطعمة ٠

أجل يا سيدى توريد الأطعمة ، فقد كان عم شمط هو متعهـد الطعام فى المدرسة ، فلا تكاد تحـل فترة الظهر حتى تجده قد هل بوجهه الأسود الكالح حاملا فى يديه صفيحتين احداهما قد حوت مية لفت يعوم على سطحها بعض قطع اللفت ، والثانية حوت كمية لا بأس بها من الفول النـابت ، ويجلس الرجل فى ركن من أركان الفناء حيث يكون قد جهز الأرغفة وقطعها شققاً ، ووضع فى جفنة بضعة أطباق سود فلا نكاد نبصره حتى نندفع اليه مخرجين ما فى جيوبنا من ملاليم لنبتاع بها شقة وفول ، ومية لفت ٠

ومضت فترة من الزمن وأنا منطو على نفسى حتى بدأت أطمئن الى المدرسة والى الرفاق ٠٠ وأخذت أندمج معهم وأشـاركهم فى لهوهم ٠٠ وبدأت أفهم ما يلقنه ايانا الشيخ عبد الرسول من دروس فى الكتابة والحساب والقرآن ٠٠ وكان الشيخ الضرير يثير الذعر فى نفوسنا بخيزرانته التى ينهال بها علينا دون أن يأبه أين تصيبنا ؛

كنت دائما أخشى الرجل وأنأى بنفسى عنه متقيا شره ، حتى حدث ذات مرة فى احدى الفترات التى كان يغيب فيها عن المدرسة ووكل أمرها وأمرنا الى شمط أن ضحكت مع أحد الصبية فظننى الرجل أضحك عليه ، فما كاد الشيخ يحضر الى المدرسة حتى شكا اليـه أمرى ، فنادانى الشيخ ، واقتربت منه خائفا وجلا ٠٠ ومد الرجل يده الخالية فقبض بها على عنقى ثم صرخ فى وجهى قائلا :

ـ ماذا يضحكك يابن العـاهرة ٠٠ لو كان لك أب لعرف كيف يؤدبك !!٠

وارتفعت يده بالعصى ، ثم هوت على وجهى ، ورأسى وأذنى

حتى سالت الدماء ، فاغرقت جلبابى ٠

وأخيرا تركنى وأنا أوشك أن افقد وعيى ٠

وما ان افقت من هول الضرب حتى شرد ذهنى فى أشياء يبعث التفكير فيها بعض العزاء فى نفسى حتى قطع على خيالى اقبال الصبية ٠

ونظرت اليهم فرأيت على وجوههم علامات الشماتة كأن مصابى قد أثلج صدورهم ٠

وسألنى أحدهم :

ـ أحقيقة أنك بلا أب ، كما قال سيدنا الشيخ ؟

وأطرقت ، ثم أجبته ببساطة :

ـ نعم ٠

ـ وأين أبوك ؟

وتريثت برهة قبل أن أجيب :

ـ لا أعرف ٠

واندفع الصبية يقهقهون ويتصايحون ، ووصلت الى أذنى أصواتهم المختلطة « هذا الأبله لا يعرف أين أبوه » ! ٠٠٠

وفى ذلك اليوم عدت الى الدار ٠٠ كسير القلب ٠٠ دامع العينين ، وقد طغت أوجاع نفسى على أوجاع جسدى ٠٠ فانا وحدى دون سائر الصبية بلا أب ٠٠ ولطالما رأيت جارنا عم عبد الرحيم الكواء يعود الى داره حاملا فى يده قرطاس الفاكهة ، ثم يرفع ابنه بين يديه ويحوطه بذراعيه الطويلتين ، ويغمر وجهه بالقبلات ٠ لو كان لى أب كعم عبد الرحيم لشكوت اليه ما حل بى من عصا الشيخ ولعرف كيف يثأر لى منه !

وكان أول ما فهت به عندما لاقيت أمى ، هو سؤالى اياها :

ـ أين أبى ؟

ورفعت حاجبيها فى دهشة ثم سألتنى :

ـ لم تسأل ؟

ـ ان الصبية قد سألونى فلم أعرف بم اجيب ·

ومدت أمى ذراعيها فاحتضنتنى ، وأجابت قائلة :

ـ عندما يسألونك مرة أخرى ·· قل لهم انه ميت ·

وفى اليوم التالى وجدت الصبية فى الفناء ·· فاقتربت من واحد منهم اعرف أن أباه قد توفى ، ووقفت بجواره وصحت :

ـ لقد عرفت أين أبى ·· ان أبى موجود مع أبيه ·

ووضعت يدى فى يد الصبى ·· ولكنى وجدته يبتعد عنى فى نفور وازدراء وصاح بى :

ـ ان أبى المعلم على العتر مات قتيلا فى معركة فى احدى الزقات ولكن من يكون أبوك أنت ! ؟ وكيف مات ·· ؟

وارتج على ·· ولم أعرف كيف أجيب ·· واندفع من بين الصبية واحد يصيح بى :

ـ يا ابن العاهرة ·· ان أباك لم يمت ·· ولقد سألت سيدنا فأجاب انك ابن حرام ·

وبكيت ·· فما كان أمامى سوى البكاء ·

انى أريد أبا أسكت به هؤلاء السفلة الأوغاد ·

ومنذ ذلك اليوم اضحيت أضحوكة الصبية ·· وتعودت منهم السب والضرب ، وعلمت نفسى على الأذى والمكروه ·· حتى كان ذات يوم طفح فيه الكيل ·· وكنا اذ ذاك خارجين من المدرسة قبيل العصر ، وقد سرنا ثلة من الصبية ·· وأخذوا كعادتهم يسلون انفسهم بقذفى بالفاظ السباب ·· واقترب منى أحدهم واختطف طربوشى وقذف به الى الأرض الوحلة ، ولم اتمالك نفسى فلطمته على وجهه ·

ولم أشعر بنفسي بعدها الا وأنا ملقى فى الطين ، والصبية ينهالون على بقبضاتهم يريدون القضاء على ‥ لولا أن سمعت صوتا خشنا ينهرهم ‥ ثم رأيتهم ينفضون من حولى متفرقين ، وأحسست بيدين قويتين ترفعاننى من الأوحال ويربتان برفق على ظهرى ، ورأيت وجها يرمقنى فى عطف ويسألنى هل أصابنى أذى ؟

لم يكن الصوت غريبا على ‥ فقد كان صوت عم فضل الذى سحبنى من يدى ، وغسل لى وجهى . وأزال الطين عن ثيـابى ، وأمسك بسكين البسبوسة واقتطع من الصينية قطعة كبيرة قدمها الى ‥ فهززت رأسى بأسف وقلت فى ذلة :

ـ ليس معى نقود .

فابتسم الرجل وقال انه لا يريد نقودا .

لست أدرى يا سيدى كيف أصف لك الشعور الذى انتابنى وقتذاك، بين كل تلك القلوب المتحجرة ، وفى تلك الدياجير الحالكة من القسوة والفظاعة ، قد لاحت لى بارقة حنان ، وتفجر نهر عطف ، ونبع حب ، وأمسكت بقطعة البسبوسة ، وغرست فى عجينتها اللينة المعسولة أسنانى ، وسرعان ما أجهزت عليها .

ونظر الى الرجل فى عطف وسألنى عما دفع بالصبية الى ضربى ، فقصصت عليه كل شىء ‥ وشكوت له هم نفسى .

وانتهيت من شكواى ، ولم أستطع أن أغالب الدمع الذى انهمر من عينى وقلت بصوت خفيض :

ـ ان شر ما فى الأمر أننى لا أستطيع أن أقول لهم من يكون أبى ؟

وحدق الرجل برهة ، ثم قال فى مرارة :

ـ عندما يسألونك قل لهم ان عم فضل أبى . سامع ؟

وأشرت برأسى علامة الموافقة ‥ وأخـذت أتأمل الرجل بجسده

الضخم ، وشاربه المفتول ، وطاقيته الشبيكة ، وأحسست بالغبطة تملأ نفسى ٠

هذا والله خير أب !!٠٠ اننى أستطيع أن أفحم به الصبية اذا ما سألونى مرة أخرى ٠

ومرت بضعة أيام لم يحاول أحد الصبية أن يهاجمنى فيها وكنت خلالها قد وجدت من عم فضل نعم الأب ٠

وفى ذات يوم تحرش بى أحد الصبية ٠٠ ولطمنى لطمة شديدة ٠٠ وكان الصبى أكبر منى جسما ٠٠ فنظرت اليــه وقلت له والبكاء يخنقنى :

ــ سأخبر أبى حتى يعرف كيف يؤدبك ٠

وانفجر الصبية مقهقهين ، وصاح بى الصبى ساخرا :

ــ أبوك ٠٠ أنت لك أب ؟

ــ أجل ٠٠ أبى عم فضل ، وسيعرف كيف يؤدبكم جميعا ٠

وازداد ضحك الصبية ، وأخذوا يتصايحون من حولى ساخرين وعاد الصبى يقول :

ــ أبوك عم فضل ؟٠٠ والله لو سمعك تقول هذا لحطم رأسك ٠٠ هل تستطيع أن تحضره غدا لتاديبى ٠٠ أيها الكذاب المنافق ؟ ٠

وصاح صبى آخر :

ــ لعله قد أضحى رفيق أمه !

وفى ذلك اليوم لم أذهب الى عم فضل ، ولكن الرجل لمحنى فعدا ورائى ، وسألنى عما بى فقصصت عليه ما حدث ٠

وكفكفت دمعى ، وربت على ظهرى ، وسألنى أن أنتظر برهة ٠ وبعد لحظة خلع فوطته وأمسك بيدى وعدنا سويا الى البيت ٠

ولست أدرى ما دار بينه وبين أمى ٠٠ ولكن رأيت أمى وقد انهمر دمعها ٠٠ وطأطأت رأسها ٠٠ وربت الرجل عليها فى رفق وحنان ،

ثم غادرنا . وعاد بعد برهة ، ومعه ثلاثة رجال أحدهم شيخ معمم ومعه دفتر كبير ٠

وفى تلك الليلة انتقلت أمى الى بيت عم فضل ٠٠ وفى الصباح اصطحبنى الى المدرسة ، ودفع بابالناظر بعصاه وضرب الأرض بها ضربة جعلت الشيخ الضرير يقفز من مكانه ثم صاح به

ـ اسمع يا شيخ قرد ٠٠ هذا الولد ابنى ٠٠ أنا أبوه ٠٠ اذا لحقته منك أية اهانة أو أذى ، فسأجعل من جثتـك النجسة طعاما للكلاب ٠٠ فاهم ؟

وتركنا الحجرة ، وذهبنا الى الفناء ٠٠ ولمحت شمط قد اختبأ فى احد الفصول ٠ ووقف عم فضل بين الصبية وصاح :

ـ يا اولاد ! انى أبوه ٠٠ فاذا كان لأحدكم أب خير منى فليحضر الى عربتى حتى أحطم رأسه ٠

ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد على اهانتى بكلمة واحدة أو يقول اننى بلا أب ٠

★ ★ ★

انتهى الصبى من سرد قصته على ٠٠ وغلبنى التأثر فلم أنبس ببنت شفة ٠٠ وطأطأت رأسى ، وشرد بى الذهن ، فتخيلت عم فضل كما وصفه الطفل ، فأتقن وصفه ٠٠ فقد كنت أعرف الرجـل خير معرفة ٠

وأحسست نحوه باكبار واجلال ، ورأيته خير أنواع الرجال ٠٠ تضحية ومروءة ومغفرة ٠٠ فلقد ضحى بكرامته ، ووهب نفسه أبا للطفل الذى لا أب له ٠٠ وتزوج من امه الخاطئة وغفر لها خطيئتها من اجل الصبى المسكين ٠

وبعد بضعة ايام مررت بالرجل ، ووقفت أمامه برهة ، وبعد أن

اعطاني ما طلبت من البسبوسة ·· حدثته عن زواجه من ام الصبى، ثم شددت على يده وهمست فى أذنه :

ـ انك رجل شهم ، وسيغفر الله لك كما غفـرت خطيئة المرأة . وسيعوضك عما أسديت الى الطفل خير الجزاء ·

ونظر الى فى دهشة ، ثم أطرق برأسه وسمعته يتمتم :

ـ يا سيدى ·· غفر الله لنا ولكم ·· لم أفعل خيرا ، ولم أظهر شهامة ، ولم أغفر خطيئة ·· ان الصبى هو ابنى فعلاً !

رجل ورسالة

صفق الفؤاد وهفا ، وتغنى وترنم ·· ومسه من ذكرى صاحبته سحر جعله من فرط الطرب يرقص ·

يا للقلب الثمل النشوان ·· الذى تكاد تسمع فى خفقاته رجفة شوق وصبابة · كل هذا قد فعله به مجرد خيال طاف به ، أو طيف حام من حوله ؟

بهذه الكلمات بدأنى صاحبى الحديث ، وقد جلسنا نرقب المياه المتدفقة الناثرة وقد تفجرت من نبع بين الصخور · وأخذت تتلمس طريقها بين الحصى والحجارة ، ثم تلتقى متجمعة فى مجرى يشق الأرض فى لين ورفق ·· فينفخ فيها الروح كأنه الشريان يجيش بماء الحياة · ·

· كان الوقت أصيلا وقد اصطبغت السماء بحمرة الشفق ، وبدت قرية « الباويطى » فى الواحات البحرية هادئة ساكنة بعد أن أوى أهلها الى أكواخهم المتواضعة ، التى أحاطت بها النخيلات وأشجار البرتقال والليمون ·

ونظرت الى صاحبى ·· فأدهشنى ذلك الشبه العجيب بينه وبين الينبوع الذى يتفجر منه الماء فقد كان هو الآخر ينبوعا متفجرا

بالحب ، ورأيت كلا منهما قد نبع فى صحراء مجدبة قفراء ، لا حياة فيها ولا ماء ولا رواء ·· ولا خضرة ولا نضرة ·· فاذا بالنبت يزكو ·· والطير يشدو ، واذا بالبقعة الجرداء قد صارت وكأنها قطعة من الفردوس ·

ولم تكن لى قديم معرفة بصاحبى هذا ·· فما أنكر انى رأيته قبل أن ألتقى به فى هذه الواحة النائية ؛ التى كان يعمل بها طبيبا ، ومع ذلك لم يكد يمضى على تعارفنا يوم أو يومان حتى رأيتنى آنس اليه وأحس بمتعة فى الجلوس معه ، ولذة فى سماع حديثه ·

ورغم أننى لم أقبل القيام بهذه الرحلة التفتيشية الى الواحات الا على مضض ·· ورغم أننى قد عزمت على ألا يطول بقائى فيها الا بالقدر الذى يسمح لى بانجاز عملى على عجل أشد العجل ـ اذ كنت وقتذاك خاطبا ـ فقد رأيت الأيام تمر بى وأنا لا أحس بملل من المكان أو رغبة فى الرحيل عنه ·

أجل ·· لقد أحببت المكان وصاحبى فيه ·· وجذبنى سحر الينبوعين : ينبوع الماء ·· وينبوع الحب ·· فقد كانا يكونان معا شيئا فاتنا خلابا ، وكان الواحد منهما متمما للآخر ، فما أظن المكان وحده ، أو الفتى وحده ، كان يستطيع أن يفعل بى ما فعلاه بنفسى مجتمعين ·· فيلهيانى عن العودة الى صاحبتى التى ما ظننت أن هناك فى هذا الكون ، ما يستطيع أن يلهينى عنها بعض الوقت مهما بلغ من السحر والفتنة ·

وأظن القراء على صواب عندما يصمون بالسخف ذلك الذى يدعى أن طبيبا فى واحة ألهاه عن حبيبته أو خطيبته ·· ولكن لو قدر لهم أن يروا ـ أو استطاعوا أن يتخيلوا ـ تلك الأشجار الخضر المتكاثفة التى تدلت منها الثمار الممتلئة ، وتلك التربة الذهبية وقد

شقها المجرى اللجينى ، أو يستمعوا الى شدو الطير وهمس الغصون وخرير النبع · اجل لو قـدر لهم أن يبصروا بما بصرت من سحر المكان . لما رأوا فيما أقول سخفا وما انكروه عجبا ·

هذا عن سحر المكان · اما عن الفتى ·· أو ينبوع الحب ·· فقد كان ، وايم الله ، فتى عجيبا ·

كان متلألىء العينين حلو التقاطيع دائم الابتسام · وكان أعجب ما فيه قدرته على التحدث عن أمور الحب ·· فكان يحملنى باحساسه المرهف ، وشعوره الفياض الى عالم مفعم بالرضا والسعادة ، ويحمل ذهنى الى ناحية من التفكير الجميل الذى يقارب جماله جمال المكان ، فأحس كأن جسدى فى روضة وذهنى فى روضة ، ويتضاعف عندى الشعور بالجمال والاحساس بالفتنة ·· فليس يكفى المرء لكى يمتع بجمال الكون أن يحيط به ذلك الجمال بل يجب أن يصفو ذهنه ويهدأ تفكيره ، حتى يستطيع حقا أن يحس بمتعته ·

كان يحدثنى عن الحب ·· فكنت أحس بمتعة من حديثه اكثر مائة مرة من المتعة التى أحسستها من الحب نفسه ·· وكنت أجزم فى نفسى أن ذلك الذى أصابنى فيما مضى من الأيام وظننته حبا ·· لم يكن قط حبا ، انما الحب هو ذلك الشىء الذى يضىء جوانح الفتى ويشع من قلبه فيغمره ومن حوله بسنا مشرق وضاء ·

كان شاعرا وموسيقيا ، وكنت أحس عذوبة فى صوته · وما أظننى قد طربت لسماع الشعر ، كما طربت عندما اسمعنى تلك الأبيات التى تفيض عذوبة وتسيل رقة · لقد كانت له قدرة عجيبة فى الالقاء · فكان يحملنى على الاصغاء اليه وأنا الذى لا انكر أنى قد استطعت من قبل أن ارغم نفسى على الانصات الى أى متحدث ، مهما بلغت خطورته دون أن يشرد ذهنى فى منتصف الحديث ·· لقد علمنى كيف أتذوق الشعر ، وأستمتع به ، وقد كنت من قبل لا أرى فى الشعراء

الا مجانين مولعين بالقوافى والأوزان ٠

ولقد سمعت من قبل الكثير من الموسيقى والغنـاء ولست آتهم نفسى بجمود الحس ، فأدعى أنها لم تك تطربنى وقتذاك ، ولكنى مع ذلك لم أكد أسمع من الفتى قصيدة « ردت الروح » حتى خيل لى أن هاجع الاحساس منى قد تيقظ وأحسست كأنما قد ردت الروح فعلا فقد كان للحن الأنشودة وصوت الفتى « سحر لعمرى له فى السمع ترديد »

ولم أكن أعلم الشيء الكثير عن قصة الفتى العاشق حتى جلس الى فى ذلك الأصـيل ، وأخـذ يحدثنى عن ذلك القلب الذى خفق زهفا ٠٠ والذى مسه من ذكرى صاحبته سحر جعله من فرط الطرب يرقص ثم رأيته ينشر بين يديه رسالة قد طويت بعناية وانهمك فى قراءتها وسألته ضاحكا :

ـ رسالة حب ؟

ـ أجل ٠

ـ من صاحبتك ؟

ـ كلا ٠٠

ـ الى صاحبتك ؟

ـ بل منى الى نفسى ٠٠ لقد وجهت فيها الحديث اليها وأنا أعلم سلفا أنه لن يصل الى مسامعها لأنى لا أعلم كيف أوصلها اليها ٠٠ ومع ذلك فقد كتبتها لأنى أحسست بلذة فى كتابتها ٠٠ كما أحس بلذة فى قراءتها كلما هزنى الشوق اليها ٠٠ أجل يا صاحبى هى رسالة منى الى ٠٠ أنا كاتبها وأنا قارئها ٠

ثم عاود القراءة ، وبعد برهة مد الى يده بالرسالة وهو يقـول باسما :

ـ خذ ٠٠ سل نفسك بهذيان مجنون !!

وأمسكت بالرسالة مجيبا اياه :

ـ لقد احترمت المجانين منذ لقيتك ·· وكرهت رؤية العقلاء ·

وبدأت أقرأ الرسالة فى تأن وتمعن ·· كما يرتشف مدمن الخمر كاسا معتقة ·· وخيل الى أن الفتى حين كتبها قد أمسك بالقلم بين ضلوعه لا بين أصابعه ·· فقد أحسست بحرارة عجيبة تنبعث من الكلمات ، واليك الرسالة :

« يا صاحبتى ··

قوة الخيال قد أضحت سلواى ·· وزادت فى نفسى القناعة حتى أصبحت أكتفى بطيفك ·· وحتى أضحى مجرد تصورك وتخيلك ·· يذهب عنى اللوعة ·· ويضـيع الشجو والشجن ·· وماذا أملك يا صاحبتى غير الذكرى أجترها من جوفى كما تجتر الابل غذاءها المختزن اذا ما برح بها السغب وشفها الظمأ ·· لا فرق بيننا الا أن غذاء الابل ينفد ·· وذكراك المختزنة فى قلبى لا تبلى ولا تنفد ·

ما روعنى بعدك ، يا حبيبتى ، وما آلم نفسى ·· لأن نفسى قوية الأمل شديدة الايمان بالله وبك ·· وانى أحس أنك قد بت ـ على بعد الشقة ـ أقرب الى نفسى من أى وقت آخر ·· فقد زادنى البعد ولها وولعا ·· حتى ليخيل الى أن بيرون قصـدنى بقوله : « ان الفؤاد ليتفتت على البعد فلا يزداد الا ولعا ·· كالمرآة تريك صـورتك ثم تتفتت فتريك ألف صورة » ·

الناس من حولى يشكون الوحـدة المضنية ·· ويلعنون تلك اللحظة التى ألقت بهم فى هـذه الوحشة فابعـدتهم عن الصحب والخلان ·· و انا وحدى أحس أن نفسى قانعة راضية مغتبطة ·· لأنى ما شعرت قط بالوحدة ·· فانك أمامى دائما ·· فما بارحت صورتك مخيلتى وما غادر طيفك رأسى ·· فاضحكى يا حبيبتى لأنى أسمعك ·· وحدثينى كما فعلت فى ساعة اللقاء ·· فما زلت معى وما زلت معك ·

كم حاولت ان اكتب لك قبل الآن ٠٠ ولكنى كنت أعلم أن كلماتى ستنطبق عليها الصفحات فيطويها الزمن ٠٠ أو ستتطاير كما يتطاير الهشيم وتذروه الرياح ٠

انى لأنكرك حين رأيتك أول مرة وأنت طفلة لاهية وقد وقفت فى فناء المدرسة مرتدية المريلة السوداء ، وحولك بضعة أطفال يلعبون الحجلة ، وكنت عائدا حين ذاك من المدرسة وقد تأبطت بضعة من الكتب فلمحتك من خلال السور الحديدى ٠٠ بشعرك الذهبى المتطاير وراءك والذى لا يكاد يستقر فى مكانه ، وعينيك الزرقاوين المتلألئتين ، وأنفك الدقيق الذى لا يكاد المرء يبصر فتحتـه ، وشفتيك الرقيقتين القرمزيتين ، وتلك الحمرة التى قد كست خديك فبدوا كأنهما جمرتان ملتهبتان ٠

وتعودت من ذلك اليوم أن أواظب على العودة من المدرسة فى نفس الموعد لكى أرقبك وأنت تتوثبين فى الفناء حتى نشأ بينى وبينك نوع من الصداقة العابرة والتعارف بالنظرات والأعين ٠

وكانت صويحباتك لا يكدن يبصرننى حتى يتهامسن فيما بينهن ثم يسرعن لانبائك بوجودى ٠٠ فتلتفتين الى وقد شـاع فى وجهك السرور ، وافتر ثغرك عن لآلىء منضدة ، وكان لتلك النظرة والبسمة لذة فى نفسى لا أظن كثيرين من الناس احسوا بها ٠٠ فهى أشبه بتلك اللذة التى يحسها المؤمن المتعبد حين يفرغ من عبادته ٠٠ ويشعر أن الله قد رضى عنه ٠

ومرت الأيام والشهور والسنون وبدأت مرحلة النضج ٠٠ وأخذت تتحولين من طفلة لاهية الى فتاة رزينة واعية ٠٠ وبدأت تضنين على بتلك الابتسامة التى كنت تمنحينها اياى فى غير كلفة ودون تفكير ٠٠ واستبدلت بها ذلك الاحمرار الذى يكسو وجهك والخجل الذى يعتريك

كلما التقت عينانا ·· واصبحت صويحباتك اكثر حكمة واتئادا ·· فاستبدلن بالاشارات غمزا خفيفا وهمسا رقيقا ·

وفى ذات يوم عدت من المدرسة كعادتى ، فراعنى أن وجدتهم قد سدوا فتحات السور الذى كنت أطل عليك منها ، ولكنى عولت على أن انتظرك حتى تغادرى المدرسة فالحك وأنت تصعدين الى العربة ، وتبتسمين لى ابتسامتك التى تشرق فى نفسى فتضىء جوانحى ·· ورأيت زميلاتك يشرن لى باسمات ·

ثم تبدل أمرك بعد ذلك · فكنتَ اذا رأيتنى ، تعمدت الا تلتقى ابصـــارنا ·· وكسوت وجهـك حلة من الجد والغضب كأن مرآى يسوءك ويؤلمك ·· فاصابتنى دهشة اليمة ، وأحسست بالمرارة تفيض فى نفسى ·· وبالألم يحز فى قلبى ·· وتمنيت لو سنحت لى الفرصة لأسألك عما بدل ما بنفسك ·

وأخيرا سنحت الفرصة ·· فقد التقينا وحيدين ·· وجها لوجه ·· فى معرض للزهور ·

وتصافحنا اذ ذاك ، وتلاقت أيدينا لأول مرة ، فأحسست برجفة تسرى فى جسدى ·· ولم أصدق أننى فى يقظة ·· فقد كان بعيدا على أن القاك وحيدة فى المعرض ·

وغادرنا المعرض فسألتك أن نجول برهة فى الحديقة فوافقتنى بعد تردد قصير ، ونأيت بك الى خلوة فجلسنا نتحدث ·· ولم يكن الحديث بالأمر اليسير علينا حينذاك ·· فقد كان لدقات قلبينا صوت مسموع ، وكنت أحس بقلبى يكاد يقفز من بين أضلعى ·

وكان أول ما سألتك عنه هو سبب تلك الاعراض والتجاهل ·· فأجبتنى بنظرة رقيقة بددت من نفسى بقايا سحب قاتمة من التشكك وأنبأتنى انك لا تستطيعين الا أن تستخفى بهذا المظهر فقد كثر حديث صاحباتك عنك حتى أضحين يسمينك العاشقة ·· وأنك خشيت عاقبة

هــذا اللغط منهن فلم تجــدى بدا من أن تتجهمى لى وتتكرى على ما يبدو لهن حتى يكففن عن غمزهن ولمزهن

وأخبرتك حينذاك أن لا ضير من علاقتنا ، لأنها علاقة حب سينتهى برابطة قدسية شريفة ، ورأيت عينيك تبرقان بالسعادة وقلت ان الوقت لم يحن بعد ، فأجبتك مؤكدا أنى سأتخرج بعد بضعة أشهر ، ولن يكون هناك حائل بيننا وبين الزواج ٠

وطال بنا الوقت ونحن نتحدث عن أمانينا وأحلامنا ٠٠ ثم وجدنا الوقت قد سرقنا ٠٠ أو على الأصح أننا قد سرقنا الوقت ٠٠ وهممنا بالعودة وكنت أحس بلهفة الى أن أقبل يدك ، فأمسكت بها فى شوق وشغف ، ورفعتها الى شــفتى ، وأنا أخشى أن تســوءك منى هذه الجرأة ، ولكنى شعرت بك تقتربين منى بجسدك ، وأحسست بيديك تحيطان بعنقى ، ووجهك يلاصق وجهى ، وبعبير أنفاســك العطرة يختلط بأنفاسى الملتهبة ٠

أبصرت عينيك تنظران الى فى لين ورفق ، وأحسست طرف أنفك يلامس طرف أنفى ،فمددت شفتى أمس بهما شفتيك مسا خفيفا ، كما يحاول الجائع أن يتمتع بتذوق الطعام قبل التهامه ، ثم أطبقت عليهما بشدة وعنف وضغطتهما ضغطا شديدا ٠

ولم تسنح الفرصة بعد ذلك الا بلقاء عابر ولمحات خاطفة ، حتى تخرجت بعد فترة قصيرة ثم عينت فى هذا المكان النائى ، فرحلت دون أن أتمكن من لقياك ، ومع ذلك فاننى ، كما قلت لك ، قرير العين هادىء البال ، فما روعنى بعدك وما أوجعنى ، لأن نفسى قوية الأمل ، شديدة الايمان بالله وبك ٠

أجل ! سنلتقى ثانية « وأحسن الأيام يوم أرجعك » ٠

★ ★ ★

وانتهيت من قراءة الرسالة الملتهبة ، وطويتها فى يدى ، وشرد

ذهنى بعيدا ، ورأيتنى أفكر دون وعى فى الفتاة التى خطبتها منذ أشهر قلائل وكيف رحب بى أبوها أشد الترحيب ·· ولكن الفتاة العنيدة كانت ترفض الزواج رفضا باتا ، حتى انتهى الأمر بأبيها الى أن يعدنى بأنه سيحاول اقناعها وطلب منى أن أحاول أنا الآخر من جانبى التقرب اليها ·

واستدرجتها ذات مرة ، فأنبأتنى بصراحة أنها تحب ، وأنها لا تريد الزواج لأنها تنتظر من تحب ·

ونظرت اليها نظرتى الى طفلة طائشة ، فقد كنت فعلا لا أراها أكثر من طفلة ، وأنبأتها بأنها بلهاء لأنها تتعلق بحب وهمى ·· وأنه لو كان ذلك الشخص الذى تظنه يحبها ، يحبها حقا ، لما تردد أن يتقدم للزواج منها ·· ثم أنبأتها أن ذلك الحب الذى تتخيله لا ضرورة له ألبتة فى الزواج بل انه يتطاير تطاير الدخان فى الهواء ، وأن نجاح الزواج يتوقف على توافق الطباع · وقلت لها ان الرجال لا يؤمن جانبهم ، وان أغلب الظن أن صاحبها قد نسيها ، وأنه قد استعاض عنها بغيرها ، فالرجال لا يشبعهم حب امرأة واحدة ·

ورأيت خيبة الأمل ترتسم على وجهها والشك يلوح على قسماتها · ومرت بى الأيام وأنا أحاول أن أبرئها من ذلك الحب وأشفيها من ذلك الشىء الذى تخيلته علة ومرضا ، حتى نجحت أخيرا فى أن أجعلها تقبل الخطبة ، وان كنت لم أنجح فى أن أزيل ذلك الحزن الذى كان يعتمل فى قلبها وأنا ألبسها خاتم الخطبة ·

ونظرت الى صاحبى نظرة سريعة ، ثم رأيتنى أسأله :

ـ ما اسم صاحبتك ؟

ودهش الفتى لسؤالى ولكنه نطق بالاسم ، فسرت فى بدنى رعدة هزتنى من أخمص قدمى الى قمة رأسى ، وبدرت منى صرخة مكتومة · لقد كانت فتاتنا واحدة ! ·

وتذكرت ما قلته للفتاة من ان صاحبها قد نسيها واستبدل بها غيرها ، واحسست كأنني قد اجرمت فى حقها وحقه · لقد حاولت ان أقبر حبا ندر فى هذا الزمن وجوده ، حبا من ذلك النوع الذى خلده التاريخ ·

وقفز أمامى شيطان الأنانية ينبئنى أن الفتاة من حقى وأنى أستطيع أن أنسيها حبها وأن أترك الفتى فى أوهامه وأحلامه ، فلا بد أن الزمن سيبرئه من حبه ·

وأحسست بحيرة شديدة ·· وعصف برأسى التفكير ، ولكنه لم يطل بى فقد مددت يدى الى أصبعى فنزعت منـه خاتم الخطبة ، وأمسكت بيد صاحبى فى الظلمة فوضعت الخاتم فى أصبعه ، لقد كان هو أحق به · ودهش الفتى دهشة شديدة ، ولكنى أنبأته بجلية الأمر فى صوت خافت ، وقلت له اننى سأسوى الأمر من جانبى ، وسأفعل له كل ما يلزم وليعتبر الخاتم هدية منى ، على أن يهب لى شيئا واحدا ، هو تلك الرسالة التى كتبها الى صاحبته لا لأنى أريد أن أتعلم منها الحب ، فأغلب ظنى أنى قد جاوزت مرحلة التعلم ، بل لأعلم بها أولادى فى صباهم كيف يحبون !!

رجـــل مجـــهول

عزيزتى :

هذه رسالة مجهول ·· ما خطر بباله قط ـ مذ عرفك ـ أنه منك مجهول ·· حتى لقيته فأنكرته شر انكار ، ونظرت اليه وهززت رأسك وقلبت شفتيك وسألته « من تكون ؟ » فأرقت بسؤالك لا ماء وجهه ، بل ماء روحه ·· وتركته عودا يابسا وكومة من هشيم ·

أنا يا صاحبتى ذلك النكرة ·· الذى أراق على قدميك خلاصة روحه ، وعصارة نفسه ·

يا للروح الذى ذهب بددا ، ويا للنفس التى ضاعت شظايا ·

أنا المجهول الذى لا تعرفين ، والذى يعرفك خيرا من معرفتك نفسك · أنا المجهول الذى رفعك الى الذروة وهويت به الى الحضيض ·· أنا الذى صنعتك فحطمتنى ·· أنا الذى وهبت لك الخلود فأبيت على حق العرفان ·

ترى هل ستعرفيننى هـذه المرة ؟ أم أننى ما زلت عندك نكرة مجهولا ؟ أنا لا أستجدى عرفانك ، فسـواء عندى أعرفتنى أم لم تعرفينى ، لقد أضحيت عندى شيئا وهميا لا أثر له فى عالم الحقيقة ، وما عاد بى شوق الى رؤيتك ولا لهفة على لقائك ·

لا عتاب بيننا يا ساحرة ، ولا حساب ولا لوم ولا تأنيب ، وكيف ألومك والعلة فى نفسى والداء فى قلبى وفى روحى ! ما ذنبك وقد جعلت منك ما لا قبل لك بأن تكونيه لا أنت ولا أية امرأة سواك ·· ما ذنبك وقد سلطت عليك من أوهام نفسى الشاعرة المرهفة ما صنع منك مخلوقة وهمية ليست لها بالواقع صلة ، وخلعت عليك من الأضواء ما جعلك تشعين بالسحر وأنت الخابية المظلمة ، وألبستك من نسيج الأوهام ما جعلك فى مصاف الآلهة ·

ما ذنبك أن أجعل منك معبودة ولست الا امرأة ·

امرأة ! ·· لشد ما أبغض النساء من أجلك ·· بعد ما أصبتنى بذلك الخذلان وملأت نفسى بمرارة الهزيمة ·

★ ★ ★

كيف لقيتك أول مرة ؟ وكيف كنت أنت ؟

لقيتك على شاطىء البحر ·· لقاء غير عادل ·· فأنت تدرين ما يعنى شاطىء البحر بالنسبة لك ، وتدرين أية فارسة أنت فى هذا الميدان ، وبأى أسلحة ماضية تصرعين القلوب وتأسرين الأرواح ، وتعرفين كيف يجردك البحر من ثيابك فكأنما سل سيف الفتنة من غمده ·· وأطلق سهم السحر من قوسه ·· سيف قاطع بتار ، وسهم مارق مشحوذ ، لا يخطىء الهدف ·

كيف كنت ؟ سلينى أنا ، فأنا أدرى الناس بك ، ومن غيرى يستطيع أن يصفك ؟ وقد انطبعت صورتك فى ذهنى وفى قلبى مذ رأيتك أول مرة ، فلم تغادرهما ، حتى بعد أن تجاهلتنى ، وألقيت بى فى زوايا النسيان ·

كنت متكئة على رمال الشاطىء وكان أول ما أبصرت منك موجات من شعر تهدلت على كتفيك وانسابت على ظهرك ، ووقفت أرقبك مشدوها زائغ العينين ، فاغر الفم ، وجذبنى صاحبى من يدى وسألنى فى دهش :

ـ ما بك ؟ ! ·

ولم أجبه ، وسرت بجانبه ونظرى مثبت فى شعرك وفى جسدك المنبسط على الرمال ·

وعدت اليك مرة ثانية ، لأجدك تتوثبين على الشاطىء فى مرح الطفولة اللاهية العابثة ، ورأيت جسدك قد استقام ويا له من جسد نموذجى كامل ·· قد شده المايوه ، وأبرز مفاتنه ! ·

واتخذت لى مكمنا أرقبك منه خفية ، من غير أن أحس فى ذلك حرجا أو خشية ·

ونظرت الى وجهك ، فلم أجده غريبا عنى ·· وكأنى لا أبصره لأول مرة ، بل كأن بيننا ود قديم ·· ولم أر به ذلك الجمال المجلوب ، وانما رأيت جمالا لا أثر فيه لصنعة ولا تطرية ·· فلا الحاجبان مزججان ·· ولا الشفتان مرسومتان ·· ولا دهان ولا أصباغ ·· بل وجه تعهدته الشمس فصبغته بسمرة حمراء كلون الخوخ ·· وعينان بهما خضرة صافية ، وشفتان دائمتا الابتسام عن ثنايا لؤلؤية فلجاء يبدد مرآها الهموم ويطرد الأحزان ·

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد لى شاغل فى الحياة سواك ·· أجوب الشاطىء كل يوم باحثا عنك حتى اذا رأيتك أحسست بالهدوء والراحة ، واخترت بعد ذاك نقطة مراقبة أرقبك منها كأنى حارس لا تغفل عيناه ، فاذا سرت تبعتك ، واذا نزلت البحر هبطت وراءك أذرع البحر جيئة وذهابا ·· لا تخفيك عنى أمواج الماء ولا أمواج البشر ·· أميز رأسك بين مئات الرؤوس المنبثة فى الماء مهما تبعد بيننا المسافة·

ومضى الصيف وأنا على هذه الحال ، قانع منك بذلك القدر ، لا أكاد أرى ان كنت قد أحسست بى بين المئات الذين يزخر بهم الشاطىء ·· أو كنت قد ميزت عينى بين مئات العيون اللهفى ·

وافترقنا بعد ذاك ·· وحل الشتاء ·· ولم تكن الفرقة بيننا لتعنى

فرقة حقا ·· فما أحدثت فينا تغيرا يذكر ·· وما أحس لها أحدنا أى أثر ·· فمن ناحيتى أنا لم يطرأ على جديد سوى أنى نقلتك من مرأى البصر الى مرأى الذهن ، واستعضت عن مراقبتك بالعين تتبعك بالذاكرة ، وما أظن احداهما تختلف كثيرا عن الأخرى ·· فما كنت أنال منك بالبصر أكثر مما أنال بالتفكير ·

أما من جانبك أنت ·· فما كانت الفرقة تعنى لديك شيئا ·· وبماذا تضيرك فرقة من لم تحسى وجوده ؟ ·

واستبدت ذكراك بنفسى ، وملكت على كل تفكيرى ·· وبدأت اتخذ منك ملهمة ·· أستلهم منها كل ما أكتب ·· فكنت تفيضين على بالحياة ·· وتمنحيننى من وحيك ما يملأ كتابتى حرارة وحسا ·

وأدبر الشتاء ، وأقبل الصيف مرة أخرى ، وكان بنفسى اليه حنين ولهفة ·· فقد أضحى الصيف يعنى لدى شيئا واحدا هو أنت ·· أنت وحدك ·· ولا أحد سواك ·

ومرت بضعة أيام وأنا أطوف الشاطىء باحثا عنك من غير أن أعثر لك على أى أثر ، ورأيت صاحباتك اللاتى تعودت أن تجلسى بينهن ، وهممت ــ لولا الحياء ــ أن أسألهن عنك · أسأل عن حورية البحر ذات الشعر المنساب انسياب الغدير المترقرق ·

وكدت أيأس من لقائك وأحسست بخيبة أمل شديدة حتى كان ذات يوم بصرت بك ، فكأن الروح قد ردت الى ·

كان ذلك بين الأمواج وقد أخذت تغطسين لاهية ·· ووقفت هنيهة وأنا ابصر رأسك غاطسا فى الماء ، وقدميك معلقتين فى الهواء ·· ولست أدرى أى شيطان دفع فى نفسى من الجرأة ما جعلنى أمد يدى الى قدميك المعلقتين المقلوبتين فأبدأ فى زغزغتك ·

وانقلبت واقفة على قدميك وأخرجت رأسك من الماء ونظرت الى فى شىء من الدهش ، ثم أفلتت من شفتيك ضحكة مرحة ·· وسألتنى

فى تحد عما اذا كنت أستطيع الشقلبة كما تفعلين ·

وهكذا بدأ بيننا التعارف ·· بطريقة بهلوانية صبيانية قد تبدو لى على جانب كبير من التفاهة ، ومع ذلك فقد اعتبرتها وقتذاك واقعة خطيرة وحادثا جللا ·· بل لقد اعتبرتها نقطة التحول فى مجرى حياتى ·

ومن ذلك اليوم ، تحول حبى السلبى الى حب ايجابى ·· ولم أعد أكتفى منك بالنظرة العابرة والمراقبة ·· بل بدأت أتلهف على صوتك والحديث معك ولم تبخلى على بذلك بل منحتنى من اقبالك ما ألهب فى نفسى جذوة الأمل ·· وأبديت لى من جمال نفسك وعذوبة روحك ما تضاءلت بجواره فتنة وجهك وسحر جسدك ·

وحدث بيننا ذلك اللقاء العجيب الذى حلقت معك فيه الى ذروة السعادة تحوطنا هالة من الأمانى العذاب المشرقات ·

جلسنا نتحدث ·· وسألتنى عن عملى فى الحياة فقلت لك اننى أشتغل بالأدب ·· فتملكتك دهشة وسألتنى :

ـ أى نوع من أنواع الأدب ؟

ـ كتابة القصة ·

ـ لقد قرأت لكثيرين من الكتاب ·· ذكرنى بشىء مما كتبت ،فقد أكون قرأت لك شيئا ·

ودهشت من قولك ·· فقد كان يبدو لى أنك من نوع لا يهتم بالأدب أو القراءة ·

ونظرت الى وجهك ، والى شعرك المائج ، ثم أطرقت وقلت كأنما أحدث نفسى :

ـ كتبت ذات مرة ·· قصة شعر ·

ـ قصة شعر ؟ ·· أنت الذى كتبتها ؟

ورفعت رأسى مأخوذا ·· وسألتك متلهفا :

ـ نعم ٠٠ لقد أحضرتها الى صاحبة لى ٠٠ وقالت لى اقرئى هذه قصتك ٠ وتناولت القصة وأخذت فى قراءتها ، ولشد ما أدهشنى أن ابصر فى القصة صورة طبق الأصل منى ٠٠ كأن كاتبها رسام يصور الواقع

كيف أصف وقع كلامك فى نفسى ؟ ، كيف أصف لك السعادة التى أفعمت قلبى وقتذاك ؟ ٠

من يتصور هـذا ٠٠ أنت تقرئين لى ؟ وتقرئين القصـة التى استوحيتها منك وكتبتها لك ؟ ٠٠ لقد كان هذا أكثر مما أرتجيه ٠٠ فما كنت آمل قط ، وأنا أكتب عنك ، أنك ستقرئين ما أكتب ٠

والتقينا بعد ذاك ٠٠ وكان معك ألبوم ملىء بصورك وجلست تعرضين على الصور ٠٠ الواحدة بعد الأخرى ٠ وتسألييننى رأيى فيها . وأحسست وقتذاك وأنا أجلس بجوارك وأنقل البصر بين الصور وبينك ، أنك قد سريت فى دمى ٠٠ وأنه من العسير على أن أحيا بدونك ٠

وافترقنا بعد ذاك . فقد انتهى الصيف ولم تكن هناك فرصة لكى أراك الا فى الصيف الذى يليه ٠٠ فما كنت أستطيع أن أراك فى غير الصيف ٠

وساءلت نفسى ٠٠ كيف أستطيع الصبر حتى الصيف التالى ؟ وقد تغلغلت فى نفسى وسريت فى دمى ٠

أجل يا صاحبتى ٠٠ لقد أضحى من العسير على أن أحيا بدونك ٠

ولكن من قال اننى سأعيش بدونك ؟ ٠٠ ماذا تستطيع الفرقة أن تنال منى ٠٠ أنا تاجر الأوهام وبائع الأحلام ٠ ماذا يفعل بى بعـد الشقة ونأى المزار ، وأنا الذى أستطيع بذهنى أن أقرب كل ما شط ، وأنال كل ما نأى ٠

ولقد عزمت على أن أعيش معك ، وألا أفترق عنك لحظة . ولم يكن

ذلك بالأمر العسير ، فأنا أعيش فى كل ما أكتب ، فلو كففت عن الكتابة الا عنك ، لكففت عن العيش الا معك ٠

هل فهمت يا ساحرة ؟٠ لقد عزمت على أن أخلو اليك أنت دون سائر ملهماتى ٠ واستقر بى الرأى على أن امنحك وحدك : خلاصة الروح ، وعصارة الذهن ٠

وهكذا بدأت كتابى الأول ٠٠ كتابا طويلا ، غير تلك الأقاصيص التى تعودت نشرها ، لا لشىء الا لأعيش معك ، ولأخلو واياك ، ولا ثالث لنا سوى قلم صامت مشحوذ ، وورقة خرساء بيضاء ٠٠

وعكفت على كتابى ، أو كتابك ، وبى من الشوق واللهفة ما كان ينسينى كل ما حولى ، وقد تملكنى الحنين كأننى غريب مقبل على وطنه ، أو كأننى أم تتعهد رضيعها ٠

وأخذت أكتب وأكتب ٠٠ ومرت على ليالى الشتاء الطوال ، وأنا جالس الى مكتبى وحيدا ، فى غرفة بأعلى المنزل كأنى فوق هام السحب ، أستمد مما حولى قوة وجلداً ٠٠ من عصف الريح ، ونباح الكلاب ، وصياح الديكة ٠

كنت أبدو كفقراء الهنود ٠٠ انسان يعذب نفسه ٠٠ ومع ذلك ، فما أحسست بمتعة فى حياتى كما أحسستها فى هذا العذاب ٠ أو ما كان يبدو لمن حولى عذابا ٠

كنت لا أفعل الا شيئين : التفكير والكتابة ٠٠ التفكير فيك ، والكتابة عنك ٠

وحل الصيف أخيرا ، وأنا ما زلت منهمكا فى الكتابة ٠٠ أو على الأصح ، منهمكا فى اللقاء ٠٠ أنا وأنت فى خلوتنا سويا ٠٠ أناجيك أجمل مناجاة ، وأصوغك كما أشتهى ٠

ولم تسنح الظروف فى ذاك العام أن أذهب الى الاسكندرية وبالتالى لم تسمح لنا بلقاء ، ومع ذلك ٠٠ فما أحسست بشىء من

الضيق !٠٠ بل على النقيض ، لقد سرنى ذلك ، فقد كانت بى رغبة شديدة فى ألا ألقاك الا بعد أن أكون قد انتهيت من الكتاب ، وبعد أن يكون قد تم طبعه ونشره وتوزيعه ٠

كنت أريد ألا نلتقىَ ، الا وقد قرأت الكتاب ، الذى أفنيت فيه نفسى ٠ كنت أريد أن أسمع من شفتيك كيف تذوقت عصارة روحى ٠

كنت أختزن الشوق ، وأكبت اللهفة ، قانعا بذلك اللقاء الوهمى على الصفحات المتناثرة أمامى ٠ وكلما هفا القلب اليك عللته بحلو الأمانى ، ومنيته بعذب الآمال ٠ وكلما حن الفؤاد وشكا طول الفرقة ومرارة البعد ، صورت له كيف ستلقينى بعد قراءتك الكتاب ٠

ومضى الصيف وأنا ما زلت منطويا على نفسى فى صومعتى كالناسك المتعبد ، ليس لى من متعة فى الحياة سوى الكتابة ٠٠

ولم يحل الشتاء الا وقد انتهيت من الكتابة ، وبدأت بعد ذلك مهمة الطبع ، وتصحيح البروفات ، وعمل الاكلشيهات ، وغير ذلك من المشاق التى لم يكن منها بد ٠ وكنت أحس أنى فى عجلة من أمرى ، فقد كانت بى رغبة جارفة فى أن أنهى الكتاب قبل أن يحل الصيف ٠

وأخيرا فرغت من مهمتى ٠٠ وانتهى الكتاب ، ووقفت فى المطبعة أمسك أول نسخة أقلبها فى يدى وأتحسس غلافها اللامع ٠

أى احساس عجيب كان يتملكنى ؟ كيف أصف لك مشاعرى وقتذاك ؟ لم يكن الكتاب بين يدى أوراقا مطبوعة بل كان شيئا حيا وكنت أكاد أسمع من بين أوراقه حفيف أنفاس ٠٠ لقد كان الكتاب ٠٠ أنت ٠٠ وكان أنا !

وخرج الكتاب الى الأسواق ، وتناولته الأيدى ٠٠ وكنت فى لهفة لأن أسمع كلام الناس عنه ، وكيف يقع من نفوسهم ٠٠ كنت فى حالة توتر وانتظار ، كأنى طالب ينتظر نتيجة الامتحان ٠٠ ولم تكن رغبتى فى النجاح ، واهتمامى لآراء الناس نتيجة اهتمامى بهم أو اهتمامى

بنفسى ، أو حبا فى الظهـور ، بل كنت أتعجل حكمك على الكتاب وأتلمس بين أقوالهم وآرائهم كيف سيقع الكتاب من نفسك ، وكيف يرونك فيه •

وملأنى حديث الناس عنه بالرضا ، واحسست من كل أقوالهم بالراحة والاطمئنان فى قرارة نفسى • ولن أحاول أن أبرىء نفسى من الغرور الذى يلازم كل كاتب ، أو أبرىء الناس من المداهنة والنفاق ، ولكنى مع كل ذلك أستطيع أن أجزم لك بأن تعبى فى كتابته لم يذهب سدى •

وهكذا بدأت أتحرق شوقا للقائك •• وقد أفعمت نفسى الثقة •• وانتابنى شعور الجندى الظافر ينتظر الجزاء والتقدير ، بعد أن قدم فى المعركة عصارة نفسه •

وكنت أجلس الساعات الطوال ، وقد أمسكت بالكتاب فى يدى ، وأنا أتخيلك ، وقد قرأت الاعلانات فى الصحف عن كتاب ظهر لى ، ثم ذهبت الى احدى المكتبات لشرائه • وعدت الى بيتك وخلوت به الى نفسك ، وبدأت تقرئينه • وكنت أتوقف أمام فصـول الكتاب ، وأصور لنفسى كيف يقع كل منها فى نفسـك ، وأتخيل مشـاعرك واحاسيسك •• وأنت تبصرين نفسك فى الكتاب !

★ ★ ★

وحل الصيف ، وذهبت الى الاسكندرية ، ولم أفعل شيئا فى أول يوم سوى البحث عنك •

ولم أجدك ، لا فى أول يوم ولا فى الأيام التالية • احسست بخيبة أمل شديدة ، وتملكنى يأس جارف وضيق مستبد ، ولم أعد أطيق أن أحدث انسانا أو يحدثنى انسان •

ولم أجد بدا من السؤال عنـك ، فاستجمعت شجاعتى وسألت

صاحبة لك تعودت أن أراها دائما معك ، فأنبأتنى أنك قد سافرت ، وأنها لا تعرف متى تعودين .

وبدأت أتصبر وأنتظر ، حتى كان ذات يوم قبيل الغسق ، وقد بدأ الشاطىء يقفر من الناس ، وأخذت أسير على الرمال متباطئا أرقب الشمس تتهادى فى نهاية الأفق ، عندما التفت ببصرى فجأة الى الناحية الأخرى . فوجدتك أنت .. كأنك شمس تشرق لتعوضنى خيرا من الشمس الغاربة .

وتملكنى الارتباك ، وخفق قلبى بشدة ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع . وما كان يخطر ببالى قط أن أراك فى تلك الساعة .

ومضت فترة قصيرة تغلبت فيها على حيرتى وارتباكى ، ثم اندفعت اليك مبتسما ، ومددت يدى فشددت بها على يدك .

وكنت أتوقع أن تحدثينى أول ما تحدثيننى عن الكتاب ، ولكنك وقفت صامتة وقد بدت فى نظرتك علامات الدهش ولم تحدثينى عن الكتاب ولا عن غير الكتاب .

أحسست بشىء من الحرج .. وبدا لى أنه ليست لديك أية فكرة عن الكتاب .. وقلت لنفسى من المحتمل الا تكونى قد قرأت عنه أو سمعت به .

وقلت لك فى رفق : « ان لدى كتابا أود اهداءه لك » .

وكنت أظن أن قولى خير اصلاح للموقف وخير علاج لما احس به من حرج ، ولكنى وجدت دهشك يزداد ، ووجدتك تقطبين جبينك وتهزين راسك . وتقولين متسائلة :

ــ كتاب ؟ .. لى انا ؟

ــ أجل .. كتاب لك .. وضعته انا .

ــ أنت .. ؟ من أنت ؟

وبلعت ريقى ، وأحسست بخـذلان شديد ·· وتملكنى الوجوم والارتباك ، ثم اخذت أتمتم بصوت خافت معتذرا :

ـ انا متأسف·· الظاهر أنه قد حدث عندى التباس، لا تؤاخذينى·

ثم أوليت ظهرى وفررت هاربا ·

« من أنا ؟ » ·· يا لهزء الحظ وسخرية القدر ·

أنا من جعل منك كل شىء ، وجعلت منه غير شىء ·· أنا من محوته من ذاكرتك ·· وأثبتك فى ذاكرة الزمن ·· قاتل الله الوهم لقد أضعت فيه عمرى ، وأفنيت فيه زهرة نفسى ·

« من أنا ؟ » ·· أنا الذى قدم عصارة روحه فارقتها على قدميك وذرّيتها مع الرياح ·

يا للقـراء الواهمين ؟ ·· لو ادركوا حقيقـة ما قدمت اليهم ، ولو عرفوا زيفه ، لانقلب اعجابهم سخرية ! ·

ما حيـلتى معهم ؟ ·· لو كنت مثـالا لحطمت التمثال ! ليتنى استطيع أن أجمع الكتاب ·· لأعمل منه كومة اشعل فيها النار ·· فلا يبقى منه الا رماد تذروه ـ كما ذرتنى ـ ريح النسيان ·

شىء واحد هو الذى يعزينى عنك ، ويملأ نفسى سلوانا ، هو انك انت ·· لم تكونى أنت ·

أجل ·· لم يكن وجهك هو ذلك الوجه البرىء الذى تعودت أن اراه ، فقد لمحت به شفتين مرسومتين ولمحت به أصباغا والوانا ·

اى والله يا صاحبتى ، انى ما عدوت جادة الصواب ، وانا أعتذر لك وأقول : انه قد حدث عندى التباس ·

« من أنا ؟ » ·· أنا يا اختاه ·· من ضيع فى الأوهام عمره ·

رجــل كــريم

سيدى العزيز :

مضى عام على زواجى.أو ما يقرب من العام وأنا حائرة لا ادرى أين موضعى من زوجى ، وأين موقعى من السعادة والهناء ، ومن أحلام العذارى التى طالما تراءت لى وأنا فتاة لم يتعد تفكيرها دور الأمانى والأحلام ٠

لم أك أريد أن أعترف لنفسى بأن زواجى فاشل وأن زوجى لم يعد يحبنى كثيرا ، وأنى لم أعد أحتل من قلبه المكان الذى كنت أحتله عند بدء الزواج ، وكنت أكره أن أرى الزمن قد هزمنى وخيب آمالى ، وأى زمن ؟!! بضعة أشهر لم تتعد العام ، اى لمحة فى عمر الزمن ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تهدم شوامخ قصورى ، وأن تبدد عذب أحلامى ، فخبت فى خلالها جذوة الجب المتقــدة ، وانطفأت جمرته المتأججة ، فاذا أنا لا أشغل من تفكيره الا النزر اليسير ، واذا أنا بالنسبة اليه شىء كمالى

ومع ذلك ــ وهو أسوأ ما فى الأمر ــ لم يكن أمامى الا الخضوع والاستسلام ، والا الرضا والسكوت ، فنحن لا نستطيع أن نحصل

على الحب اذا ما طالبنا به كحق لنا ، اذ الحب هبة ليس لنا أن نطالب بها اذا ما استردت منا • أجل اذا كان حب زوجى لى قد تطاير من نفسه وخفت وخبا •• فماذا يمكننى أن أقول له ، وماذا فى طوقى أن أفعل سوى الصبر والاحتمال ، وأن أحاول أن أعود نفسى الحيـاة بلا حب وأن أقنعها أن الحب ليس سوى هشـيم أحلام تذروه ريح اليقظة •

هل ترانى مبالغة فيما أطلب ؟•• أنا أعرف أنه ليس للزوجة أن تطمع فى ذلك الحب المشتعل المتأجج ، الذى كانت تأمل فيه وهى فتاة حالمة ، وأعرف أنه ليس لى الحق فى أن أنتظر من زوجى أن يستمر على شغفه بى ، ولهفته على الى ما لا نهاية ، ولكننى مع ذلك كنت أحس فى نفسى أننى مهضومة الحق ، مهملة منسية •• ولم أكن أرانى أطلب أكثر مما تطلبه أية امرأة مهملة عاقلة رزينة . فأنا لا أريد أكثر من حقى كزوجة ، أريد أن أشعر أن زوجى يحس وجودى ويعطينى بعض وقته وبعض اهتمامه •

انى لأذكره منذ عام ، وقد جلس أمامى قبيـل الزواج بوجهه المتألق الذى يفيض بالبشر ، وابتسامته التى تشيع فى النفس السعادة والهناء ، وصوته العميق الذى ينفذ الى القلب فيخفق طربا •• لقد كنت أرى فيه رجل أحلامى ، الرجل الذى سيهب لى سعادة العمر ، ونعيم الحياة •

وتزوجنا ، ومرت الأيام ، فاذا بى أرى عمله يستغرق كل وقته ، واذا بى أراه يعشق مهنته أكثر مما يعشقنى ، واذا بى أرانى نسيا منسيا •

لا تتهمنى بالسخف ، ولا تقل ان هذا هو ما يجب على كل رجل ، واننى يجب أن أشجعه على حب عمـله •• وأن أكون عونا له •• لا تقل هذا فأنا أعرفه •• وما كنت لأطلب منه قط أن يهمل عمله من

أجلى ‥ ولكني أطلب الا يهملنى من أجل عمله ··· وأن يساوى بينى وبين مهنته ‥ ويشعرنى أن لى عليه بعض الحقوق ·

انى لا أكاد أراه الا وقت النوم وعند وجبات الطعام وحتى هذه لا نكاد نتناولها فى مواعيدها كبقية خلق الله ‥ فهو دائما ينسى ‥ ينسى أن يحضر الى البيت لتناول الطعام ، وأظل أنتظر وانتظر حتى يدق التليفون ، ثم يخبرنى أنه آسف وأنه سيحضر بعد نصف ساعة‥ وتمضى ساعة وساعتان ثم يحضر الى أخيرا منهوك القوى ‥ متعب الأعصاب ·

دعنى أعطيك صورة خاطفة ليوم من أيام حياته · حتى ترى اذا كنت متجنية عليه أو مخطئة ·

انه يستيقظ فى الصباح ليحلق ذقنه ويغسل وجهه ويجلس لتناول الشاى والافطار وعيناه مثبتتان فى جرائد الصباح ‥ دون أن ينبس بكلمة ‥ ثم ينهض ليسأل : أين حقيبته ‥ هل نسى منظاره ‥ ليس معه منديل ‥ أين طربوشه ‥ لقد كاد يخرج عارى الرأس ‥ ثم يهبط مسرعا ‥ ليتوقف على الدرج مرة أو مرات ‥ ويبحث فى حقيبته عن أشياء يخشى أن يكون نسيها ‥ ثم يهبط مرة أخرى منطلقا الى كليته ·

كان مدرسا فى كليـة الطب ‥ ولست أدرى كيف كان يقضى صـباحه بالكلية ‥ ولكنى أعلم أنه شـديد الاهتمام بطلبتـه وبمحاضراته ‥ وينتهى من عمله فى الكلية قبيل الظهر ‥ فينطلق الى عيادته التى تجمع فيها المرضى · والتى علق عليها لافتة كتب فيها مواعيد العيادة : من الساعة الثانية عشرة الى الثانية مساء ، ومن الخامسة الى الثامنة مسـاء ‥ ورغم ذلك فما انتهى قط من عيادته فى الثانية أو الثامنة ‥ بل لا أكذبك القول اذا ما قلت لك

انه كثيرا ما يصل عيادة الصباح بعيادة المساء ٠٠ وانه كثيرا ما ينتهى من عيادة المساء فى منتصف الليل ٠

وهكذا لا يكون نصيبى منه فى اليوم الا لحظات خاطفة أقضيها مع ذهن شارد ٠٠ وجسد منهوك ٠٠ وبالطبع كان يجب على أن أقدر أن هذا ما يجب أن تتوقعه زوجة رجل يعتبر من أمهر الأطباء ٠٠ ولكنى مع ذلك كنت أراها ضريبة فادحة أبذلها من حياتى ومن شبابى٠

وفى ذات يوم استيقظت ٠٠ وبنفسى شعور الفرح والنشاط ٠٠ لقد كان يوم عيد ميلادى ٠٠ أول يوم عيد ميلاد يمر بى وأنا زوجة وكنت أتمنى ألا يكون زوجى ناسيا ٠٠ وأن يقبل على فيهنئنى ويرجو لى عمرا مديدا ٠ وكم كنت أتلهف على أن يهدينى أى شىء مهما كان تافها ٠٠ ليشعرنى بأنه ما زال يحس بوجودى ويهتم بى ٠٠ ولقد حاولت منذ أسبوع أن أذكره فقلت له ان يوم عيد ميلادى هو يوم الثلاثاء المقبل ٠٠ ثم قلت بعد هنيهة اننى قد رأيت بمحل المجوهرات تحت عيادته دبوسا على شكل ببغاء لا يزيد ثمنه على خمسة جنيهات ٠٠ وانه قد أعجبنى كثيرا ٠٠ ولم أقل أكثر من هذا ٠٠ بل تركت البقية لتقديره ٠٠ وقلت لنفسى هذه الاشارة لا شك كافية لأن يفهم ٠

ومع ذلك فقد استيقظ كعادته ، وانطلق الى الكلية دون أن يشير الى بكلمة واحدة تدلنى على أنه لم ينس ٠

ووقفت فى النافذة أشيعه وهو ينطلق فى طريقه ، وبنفسى حسرة وبقلبى لوعة ٠٠ حتى أختفى عن بصرى ، فارتميت على احدى الأرائك أمسح بيدى دمعة ترقرت فى عينى ٠

أى حمقاء أنا ؟ ٠٠ لم لا أحاول أن أكون امرأة هادئة رزينة ٠٠ بدلا من التعلق بأهداب الحب وبأساليب المظاهر الرومانتيكية ! ٠ ما يضيرنى اذا لم يذكرنى اليوم ؟ وهو الذى لم يذكرنى منذ ثلاثمائة يوم ٠٠ ثم من يدرى لعل الله يدفعنى الى ذاكرته اليوم ، فيمر على

محل المجوهرات فيبتاع لى الحلية التى طلبتها ؟ وما ذلك على الله ببعيد ٠

وأنعشنى هذا الأمل ، ووجدتنى أدعو الله كأنى طفلة صغيرة ، أن يذكر زوجى أن اليوم عيد ميلادى ٠٠ وأن يجعله يبتاع لى الحلية التى أريدها ٠

ولا تسخر منى يا سيدى ، فالانسان لا يعدو أن يكون طفلا فى كل دور من أدوار حياته ، وكم كنت أكره أن أبدو ـ حتى فى نظر نفسى ـ امرأة منسية أو انسانة مهجورة ، والى من غير الله نلجأ اذا ما مس نفوسنا ضر أو أصاب قلوبنا سوء ؟ ٠

أجل ٠٠ انه لن ينسى ٠٠ انه لا بد أن يتذكر ٠

وهكذا ملأت نفسى بالأمل ٠٠ ونهضت لأقوم بترتيب البيت وتجهيز الغداء ٠٠ وأحاول أن أنعش نفسى بالتماس الأعذار لزوجى على سابق اهماله ، وأن أذكر نفسى بحسناته وأن أقنعها بأوجه الحسن فيه ، وبأنه خير من كثير غيره من الأزواج ٠

أجل ٠٠ انه لم يكن سيئا بحال من الأحوال ، انى ما زلت أذكر له يوم ان كانت أمى مريضة ٠٠ وساءت حالها ٠٠ كيف ترك عمله وعيادته ليقضى بجوارى وجوارها الليل والنهار ، وكيف كان يأخذنى بين ذراعيه عندما يعصف بنفسى اليأس كأننى طفلة صغيرة ، ويحنو على ويغمر رأسى ووجهى بالقبلات ، وأذكر فزعه اذا ما أصابنى سوء أو ألم بى مكروه ٠٠ لقد كان رجلا كريما يحمل عنى عبء أحزانى ، وكان لى دائما عونا فى الملمات ٠

ولم أكن أنا فقط التى يحمل عبء أحزانها ، فقد كانت تلك طبيعة فى نفسه وكنت أعرف أنه لا يتقاضى أجرا من نصف مرضاه ، وأنه كثيرا ما يكلف نفسه مشقة الذهاب الى دورهم ، وهو يعلم أنهم فقراء لا يملكون أجره ، بل كثيرا ما يعطيهم ثمن الدواء ، أفلا يعزينى هذا

عن اهماله لى ؟ أفلست مخطئة عندما أتألم لأنه يتأخر فى بعض الأحيان الى منتصف الليل

ولكنى انسانة يا سيدى والانسان تسرى فيه الأنانية مسرى الدماء ·· كم كنت أود أن يعطينى من نفسه . أكثر ـ ولو قليلا ـ مما يعطيه الناس !

ومرت بى الساعات سريعا ، وأنا منهمكة بجسدى فى أداء واجباتى اليومية ·· شاردة بذهنى فى تلك الأفكار التى كانت تعصف برأسى ·· وأنا أدعو الله بين آونة وأخرى أن يدفع بى الى ذاكرته ·· فيجعله لا ينسى أن اليوم عيد ميلادى ·

ودقت الساعة الثانية ، فأسرعت بتجهيز المائدة ·· وجلست أنتظر ·· ثم سمعتها تدق الثانية والنصف ·· ثم جاوزت الثالثة ·· وهو لم يأت بعد !!

وأحسست بانقباض فى نفسى ·· وسرى الحزن بين جوانحى ·· لا شك أنه قد نسى !!· فقد كان عليه أن يأتى على الأقل فى موعده لو كان يذكر ·

ودق التليفون ·· ووصل الى صوته يعتذر فى عجلة ويقول انه سيأتى بعد خمس دقائق ·· وفى الساعة الرابعة والنصف سمعت وقع قدميه وهو يصعد الدرج ·

وتملكنى ضيق شديد ·· وتمنيت لو استطعت أن أبكى بصوت عال ·· أيبخل على بيوم واحد طيلة العام ·· يأبى أن يذكرنى فيه ؟!

ولكنى تمالكت نفسى ، وفتحت له الباب وقد كسوت وجهى بشاشة مصطنعة ·· حتى لا أزيده هما فوق ما يحمله من هموم عمله ·

وانتظرت أن يستلقى على أقرب مقعد ليستريح برهة ·· كما تعود أن يفعل دائما ·· ولكنه لم يفعل بل ألقى حقيبته جانبا وأمسك بى بين ذراعيه ·· وقد علت وجهه الابتسامة التى كانت تضىء نفسى وتبدد

ظلمات قلبى ·· وطبع على شفتى قبلة كنت أحس بالظمأ اليها ··
وقال لى فى صوت حنون :
ـ كل سنة وانت طيبة ·
وهمست فى أذنه وأنا أغالب دمعة فرح ·· كانت تحاول أن تفلت من عينى :
ـ وأنت طيب ·
أية هزة أصابتنى بها تلك الكلمات الأربع ؟ وأى تأثير كان لها فى نفسى وقتذاك ؟ · ان الانسان ليتحول أحيانا الى جملة مشاعر واحساسات فيكون للكلمات فى نفسه فعل السحر ·
قلت له بصوت متدفق بالحمد والشكر :
ـ انك لم تنس ·
ـ أنسى ؟ ·· كيف أنسى ! ان لدى هدية ثمينة لك ·
ـ الدبوس ؟
ـ لا ·· هل تذكرين تلك القلادة التى أبديت اعجابك بها ؟
ولم أتمالك أن صحت فى عجب :
ـ ولكنها غالية جدا ! · فان ثمنها يزيد على مائة جنيه
ـ أعلم ذلك ·· استطعت أن أقتصد ثمنها منذ بضعة أسابيع ·
وانتظرت أن يخرج القلادة من جيبه وأن يضعها فى عنقى ولكنه لم يفعل ؛ وعلمت أنه نوع من السهو الذى هو مصاب به ، وسألته فى رقة لأذكره :
ـ أين القلادة ؟
ونظر الى برهة وأجاب وهو يهز رأسه فى شىء من الأسى والأسف :
ـ بودى لو استطعت احضارها ·· لقد كنت أنوى شراءها اليوم ·· وقلت للرجل ليعدها لى ·· ولكن الظروف لم تتح لى فرصة

اسعادك بها ‥ ومع ذلك فانى أعرف انك ستلتمسين لى العذر ‥ وستعتبرين كأنها قد وصلتك ٠

وأدهشنى منه هذا القول وسألته التوضيح ‥ فبدأ يفسر قائلا :

ـ منذ بضعة أيام ‥ شعرت بغياب أحد طلبتى عن حضور المحاضرات ‥ وما كنت لأحس غيابه لو لم يكن من نوع ممتاز ‥ نوع يطالعك ذكاؤه ونبوغه ‥ كأنه شعاع يضىء ، وسألت عنه فعلمت أنه قد فصل لعجزه عن سداد المصروفات ‥ فصل ! انها جريمة ‥ أى والله جريمة أن يحرم مثل هذا الفتى الذكى أن يتم تعليمه ٠ ويقضى على مستقبله ‥ ويحرم البلد الانتفاع به ‥ لا لشىء الا لأنه لا يملك بضعة جنيهات يسدد بها أجر تعليمه ‥ وفى الوقت الذى تتكدس فيه الأموال فى خزائن اللئام والسفهاء ‥ هذا والله لا يقبله عقل اللهم الا عقل تلك العصبة من اللصوص الذين بأيديهم أموال البلد وبأيديهم أمره ٠

وخرجت من المحاضرات فصادفت الفتى فى فناء الكلية ، وأقبل على يحيينى ‥ فذهبت به الى مسجل الكلية وطلبت منه أن يعيد الفتى لأننى سأسدد بقية مصروفاته ؛ ولكن الفتى هز رأسه قائلا : « لا فائدة » ، واستفسرته فى حيرة عما يقصده « بلا فائدة » ، فأجابنى بأنه هو الذى يبغى ترك الكلية ، اذ يتحتم عليه أن يجد له عملا حتى يعول أسرته بعد أن شل أبوه ٠ وأصابتنى الحسرة والحزن ، ولكنى أصررت أن يبقى الفتى فى الكلية ‥ اذ ليس أمامه سوى عام واحد نستطيع أن ندبر أمره بأية وسيلة ٠

وذهبت مع الفتى الى بيته وجلست مع أبيه برهة ثم غادرت الدار ‥ بعد أن تركت بقية المائة جنيه ٠

هل عرفت لم لم أحضر القلادة ؟ ! هل يمكن ان تقبلى ما فعلته على انه هدية عيد ميلادك ؟

ودفنت وجهى فى صدره ، وهمست وقد غلبنى التأثر :

ــ هذه خير هدية قدمت لى ٠٠ منذ ولدت ٠



سيدتى العزيزة :

اذا كنت ترين عمل زوجك خير هدية قدمت لك منذ ولدت ٠٠ فانى أرى قصتك خير هدية قدمت لى منذ بدأت الكتابة ٠

فهل تسمحين لى أن أهديها بدورى الى أولئك الذين وصفتهم فى قصتك باللئام والسفهاء ٠٠ أولئك الذين تكدست فى خزائنهم الأموال ؟

هل تسمحين لى بأن أنكرهم بأن ملذات الحياة محدودة وأن أموالهم مهما كثرت فلن ينالوا من متع الحياة أكثر مما نالوا ؟ وبأن أذكرهم بأن ثروتهم لن تحمل معهم الى قبورهم وأنها لن تنفعهم فى الحياة الأخرى ٠

أجل يا سيدتى ٠٠ دعينى أذكرهم فما أملك غير التذكرة :

« فذكر انما أنت مذكر ٠ لست عليهم بمسيطر »

رجـــــــــل...

غزة فى ١٩ مايو سنة ١٩٤٨

سيدى العزيز :

أكتب اليك رسالتى الأولى من الميدان .. ميدان القتال .

كم أحس لهاتين الكلمتين عذوبة فى فمى .. كم لهما من نشوة فى نفسى وحلاوة فى أذنى .

كم أشعر وأنا فى الميدان بأن اعتبارى قد رد الى وأن هامتى قد علاها الغار الذى لم يعلها من قبل . وأن أنفى قد بات يطاول نجوم السماء .

كم أحس وأنا فى الميدان بأنى قد وضعت حيث يجب أن أكون ، وأنى قد فككت بعد طول أسر ، وانطلقت بعد طول تكبيل .

ان بنا للهفة على القتال ، وحنينا الى خوض المعارك .. بنا شوق الى الصعود فى القمم ، بعد أن طال بنا الرقود فى الوهاد .. بنا شوق الى أن تكون لنا معاركنا بعد أن طال بنا الفخر بمعارك الأجداد .. بنا شوق الى أن نسمع مدافعنا تدوى وطائراتنا تئز .

أكتب اليك من الميدان ، وأنا ملىء النفس بالثقة والايمان .

أليس من فضل الله علينا أن تكون أول معارك نخوض غمارها ·· هى معارك هجوم ؟ ! هجوم شريف ·· لا اعتداء آثم ·· هجوم حتمته الشهامة وغوث الجار ، ورد عدوان الأنجاس المناكيد ·

أقسم لك يا سيدى أنى ما أحسست قط بالسعادة التى أحس بها الآن ·· وأقسم لك أنى ما شعرت بحب مصر كما شعرت به الآن ·· لقد التف بى جنودى ، وكأننا كلنا نفس واحدة ·· نريد أن ننطلق ·· لنبيد الأنذال ·· ونلقى عليهم درسا قاسيا ، لا يعودون بعده الى بقر بطون الحبالى وذبح الولدان وسبى النساء ·

نريد أن نتقدم ·· لنرفع رؤوسنا بين مواطنينا ، ونرفع رؤوس مواطنينا بين أهل العرب ، ونرفع رؤوس العرب بين العالم قاطبة !

نريد أن نرفع رؤوسنا بين مواطنينا · الذين طال بهم الاستخفاف بنا وعدم التقدير لنا ، مواطنينا الذين حسدونا على رتبة أو علاوة ، والذين تساءلوا ما فائدتنا وماذا نفعل ، والذين طالما بخلوا على الجيش بالأموال ، وقالوا انها أموال تذهب سدى ، وان الأمة لا حاجة لها بالجيش ·· مواطنينا الذى اقترح بعضهم فى مجلس النواب أن يعمل الجيش فى ردم البرك ، والذين لم يحاولوا قط أن يفهموا أن الأمم تقوم على جيوشها ·· وأننا فى زمن ، التفاهم فيه بالسلاح لا باللسان ·· نريد أن نرفع رؤوسنا بين هؤلاء المواطنين ، وأن نريهم أن لنا فائدة ·· وأننا اذا أزفت الآزفة نستطيع أن نفعل شيئا ·· بل كل شيء ·· وأننا كرماء ·· لا بأموالنا ·· بل بأرواحنا ·

نريد أن نرفع رؤوس مواطنينا بين العرب ·· نريد أن نثبت أن مصر جديرة بزعامتهم ·· ومن سوانا يستطيع أن يؤكد ذلك ؟ نريد أن نثبت للعرب أننا مخلصون فى الحفاظ على الود ، أشداء فى قراع الخطوب ·· نريد أن نريهم أن هذا الشبل الذى يدافع عن فلسطين من ذلك الأسد الذى اجتاحها فى زمن مضى ·· نريد أن نريهم أننا

اذا وعـدنا انجزنا ·· واذا قلنا فعلنـا ·· واننا امة طحن لا امة جعجعة ·

نريد أن نرفع رؤوس العرب بين أهل العالم قاطبة ·· نريد ان نعيد سؤددا وند وعزا باد ·· نريد أن نرى الغرب سطوة الشرق ·· نريد أن نقول « كلنا فى المجد شرق » بعد أن طال بنا القول « كلنا فى الهم شرق » ·

لم لا تملأ السعادة جوانحنا ، ويشع الأمل من نفوسنا ونحن نعلم أن كل ذلك نستطيع أن نفعله ·

أكتب اليك من عربة اللاسلكى ·· وقد جلست أستريح عقب يوم شاق قضيناه فى الاستعداد لمعركة الغد ·· انى أبصر من نافذة العربة مغرب الشمس ، وقد أخذت تتهادى فى الأفق ، وأرى أمامى الطريق الممتد الى مصر ، والذى سلكته قواتنا الظافرة فى قدومها الى غزة ·

وعلى يمينى قامت غزة ، بدورها البيض ، وعلى قيد خطوات منى يمتد الطريق الذى ينحدر من أعلى الربوة العالية القائمة فى مدخل المدينة ، والذى شق المدينة الى البحر ·· وفى أسفل الربوة امتدت أمامى المزارع الخضر ·· أو « البيارة » كما يطلق عليها المواطنون ، وامتدت فيها الكروم وتنـاثرت أشجار الفـاكهة وتوسطتها الآبار الارتوازية ·

هذه غزة يا سيدى ·· بمزارعها وأسوارها ·· اسـوار التين الشوكى التى طالما درسناها فى التاريخ العسكرى ، والتى علمونا من معاركها الثلاث دروسا مستقادة ، قالوا لنـا ان فيهـا تجارب وعظات قد تنفعنا فى مستقبل الزمن ·

لقد كنا نحن هذه المرة لا الانجليز ولا « اللنبى » ·· لقـد كان جنودنا السمر لا جنودهم الحمر ·· لقد كنا مصريين لا اتراكا ولا

استراليين .٠٠ لقد كنا نحن هذه المرة الذين سنخلف التجارب ونعطى العظات ٠

سقطت الشمس ، وخلفت حواشيها الحمر وآثارها الدامية ٠٠ وهجم الليل فبدد الحواشي ومحا الآثار ٠٠ وعمتنا الظلمة وسادنا السكون ، الا من أصوات الجنود وهو يحتسون الشاى ، أو أصوات اشارات تصدر الينا خلال جهاز اللاسلكى من الرياسة بين آونة وأخرى ٠

ان علينا أن نتقدم فى الغد الى دير سنيد : احدى مستعمرات الصهيونيين المحصنة المحاطة بالألغام والأسلاك والملأى بالدشم المسلحة ٠٠ هذه المستعمرة هى احدى أوكار العدو التى تقف عقبة فى طريقنا الى عاصمته ٠٠ ولا بد لنا من ازالة هذه العقبة قبل التقدم النهائى ٠

وصلتنى الآن رسالة لأذهب للرياسة لتلقى الأوامر النهائية لهجوم الغد ٠ سأتمم لك الخطاب فى فرصة أخرى ٠



٢٠ مايو

استيقظنا فى الفجر . وبنا من الأمل والثقة والفرحة ما بنفس طفل استيقظ فى فجر عيد ، ولم يستغرق منا الاستعداد للتحرك سوى ثوان معدودات ، فقد كان كل شىء على تمام الأهبة ٠

بدأنا التحرك بعرباتنا المدرعة ، فقد كان علينا القيام باستكشاف سريع لمواقع العدو قبل أن تبدأ مدفعيتنا بدك حصونه وتمزيق أسلاكه وتمهيد الطريق لنا قبل اقتحام المشاة النهائى ٠

انى ألمح الشاويش بكرى ، وقد أطل بوجهه من عربته متهلل الوجه . باسم الثغر . كأنه غير مقبل على قتال ، بل كأنه يتنزه على كوبرى بنها فى تصريح ٧٢ ساعة ٠

سرنا برهة على الطريق ، ثم بدأنا نتركه متفرقين يمنة ويسرة عندما لاحت لنا دير سنيد فى الأفق رمادية شاحبة كأن عليها قترة هم وغبرة كمد ·

تحركت الجماعات متجهة الى الأغراض المعطاة لها ، تجس نبض العدو وتحصل على المعلومات المطلوبة منها · وتحركت مع مركز رياستى وأنا أرقب العربات تتفرق وتتباعد ·

وصلت الى أذنى أصوات طلقات من ناحية العدو ، طلقات طائشة يحاول أن يوقع الذعر فى نفوسنا ويبعدنا عن مواقعه ، ولكن العربات استمرت فى تقدمها غير آبهة ، تاركة طلقاته تذهب مع الريح ·

وانتهينا من عملية الاستكشاف ، وقامت العربات بدورة واسعة أعادتنا الى مواقعنا التى اتخذتها مدفعيتنا لاصلاء العدو بنيرانها الحامية ·

واتجهت الى القائد فأسررت اليه بما استطعت ان أجمعه من معلومات أخيرة عن العدو وعن مقاومته ومواقعه ·

كانت الساعة الثامنة والنصف وما زال أمامنا نصف ساعة قبل أن تبدأ المدفعية الضرب ، فاتجهت بعرباتى المدرعة الى موقع خلفى للتجمع ، وجلسنا نرقب رجال المدفعية حتى تبدأ ساعة الصفر ·

انى أبصر أمامى أحد زملائى من ضباط المدفعية ، وهو « على عبد الفتاح » ، ولا أظنك تجهله فقد عرفتك به ذات مرة فى جروبى ·· ذلك الضابط المرح المهذار الذى لا يكف لحظة عن الضحك ، انه ما زال كما هو ، لا يكف قط عن الضحك · ان النفوس مرهفة ، والأعين حائرة بين المدافع والعدو ، وعقرب الساعة ، أما هو فقد انطلق صوته يسأل من حوله :

ــ هل سمعتم آخر نكتة عن اليهود (ثم يبدأ فى سردها) : « كان

فيه واحد يهودى ·· » وينتهى من سردها فتنبسط الوجوه وتنفرج الشفاه ·· وتنطلق القهقهات ·· من الصدور ·

وأخيرا يسود الصمت ، حتى ليكاد المرء يسمع تردد أنفاسه ، ويستمر السكون ـ سكون ما قبل العاصفة ـ لحظـة ·· ثم تهب العاصفة ·

حيا الله رجال المدفعية ، فهم رجال نموذجيون ·

أى والله يا سيدى لقد كان كل عملهم نموذجيا لكأنى بهم فى صف الصباح عندما كنا نمر عليهم بخيولنا فى منشية البكرى أمثلة للنشاط والقوة المتدفقة وخفة الحركة لا تكاد تميزهم من فرط سرعة حركاتهم ·· حتى لكأن القنابل وقد تناقلتها الأيدى تقفز وحدها الى ماسورة المدفع ·· حركة دائبة بلا همسة ولا كلمة ·

والاصابات يا سيدى اصابات رائعة ·· هل تصدق أن أول قذيفة أطلقت أصابت احدى الدشم اصـابة مباشرة ؟ كان كل الضرب فى الصميم ، فما طاشت ضربة واحدة ·

استمر الضرب ، والرجال السمر فى مكانهم كالأوتاد ، ما أصابهم كلل ولا ملل ، ولا طرأ عليهم أقل تغيير ، اللهم الا تلك الطبقة اللامعة من العرق التى كست وجوههم وأجسامهم ، وتكشيرة قاسية قد سرت فى ملامحهم فأبدتهم كبائعى الحمم وتجار السعير !!

استمر الضرب مبرحا متواصلا ، لا هوادة فيه ولا رفق ولا سكون ولا هدوء ، لا تسمع الآذان سوى الدوى ولا تبصر الأعين سـوى الدخان المتصاعد ، ولا تشم الأنوف سوى رائحة البارود الممزوجة بالأتربة ، وبين آونة وأخرى نسمع أزيز طائراتنا تتجه الى العـدو تهديه بعض قذائفها ·

استمر الضرب خمس ساعات متواصلة والعـدو يصـلى نيران المدفعية والطائرات · وفى منتصف الساعة الثانية والنصف ، بدت

عليه بوادر اليأس ، وأخذت البيارق البيض تتصاعد من مواقعه الواحد تلو الآخر ، تعلن التسليم ٠

لقد أخرج العدو بيارقه البيض ، ولم يكن لدينا كبير ثقة فى شرفه ، فان الذى بقر بطون الحبالى وذبح الأولاد ، لا يكثر عليه أن يرتكب أمثال تلك الخدع القذرة ، فيلوح بالتسليم حتى نكف عن الضرب ونتقدم منه ، فيبدأ هو فى ضربنا كأى نذل مخادع جبان ٠

أجل يا سيدى كنا نعلم أن هذا التسليم من جانبه قد يكون خدعة قذرة ، ومع ذلك فلم نكن نملك سوى أن نكون شرفاء ، وأن نكف عن ضرب عدو لوح لنا برايته البيضاء ، وأعلن اليأس والتسليم ٠

وهكذا ــ كأى رجال شرفاء ــ أوقفنا الضرب ، وتقدم الى العدو بعض ضباطنا فى عربة من عربات الجيب ، ولكنهم لم يكادوا يقتربون من مواقعه ويصلون الى مرمى نيرانه حتى رأينا الراية البيضاء تنزل ونيران الجبناء تتقاذف ، فاستدارت العربة عائدة بسرعة الى خطوطنا ٠

أى والله هذا هو ما حدث ، وماذا ينتظر أن يفعل الأنذال سوى ذلك ؟ ان من الخطأ أن نكون شرفاء مع الذين لا يفهمون معنى الشرف ٠٠ الذين لم يكونوا فى حياتهم قط شرفاء ٠٠ الذين يبيعون شرفهم بدراهم معدودة !

وهبت الزوبعة ثانية ، أشد عصفا مما كانت ، زوبعة عاتية لا تبقى ولا تذر ، وعاد أسود المدفعية الى قذف حممهم ، أسودا غاضبة ثائرة تود لو تركت مدافعها وتقدمت الى الأنذال المخادعين لتمزقهم اربا ٠

استمر الضرب حتى الخامسة ، وهنا حل دورنا اذ كان علينا أن نتسلم العمل من الرجال الكواسر فنقوم بالهجوم مع المشاة ، ونقتحم مواقع العدو ، ونطهرها منه ٠٠٠ ونحتلها برجالنا ٠

وبدأت الموجة الأولى من عرباتنا المدرعة تفتح للتقدم يسترها

وابل من نيران المدفعية تمر من فوقها ، فتهبط على حصـون العدو لتدكها دكا · ويتقدم من ورائها جنود المشاة ، ثابتى الخطى ، شديدى البأس ، قد نفرت عروقهم وبرزت عضلاتهم وهم يقبضون بشدة على بنادقهم وتجهمت وجوههم وكشروا عن أنيابهم ، واختلط تراب المعركة بعرقهم المتصبب فزادت وجوههم سمرة فوق سمرة ، وبدأ كأن فى عيونهم بعض تلك الحمم التى تخرج من أفواه المدافع ·

وهكذا اخذنا نقترب من مواقع العدو ، الموجة تلو الموجة ، لا خلل فى التوقيت ، ولا نقص فى الخطط ، كل شىء نموذجى كامل ·

وكنت أتقدم بعربتى في منتصف احدى الموجات ، وقد تملكتنى النشوة ، وفاض بى الحماس ·· ان نيران العدو قد تستطيع أن تسقط منا بعض الأجساد ، ولكنها لن تستطيع أن توقف ذلك الايمان المتدفق والحماسة البالغة ، لقد عزمنا على أن نبيدهم ، ولا بد لنا من ذلك ، ولن يقف فى سبيلنا حائل ·

وكفت المدفعية عن الضرب ، فلقد أصبحنا فى منطقة النيران ، وأصبحنا نواجه العدو وجها لوجه ، مصوبين اليه فوهات مدافعنا المركبة على العربات ·

وزاد لهيب المعركة ·· وانطلقت مدافع العدو الرشاشة المستورة فى الدشم لتوزع علينا وابلا من طلقاتها تحاول ايقافنا عبثا ·

ووصلنا أخيرا ·· وقد تعالى زفير مشاتنا على دوى المدافع ، وبدا العدو ينهار ويلفظ آخر أنفاسه ، ولم يعد يسمع من مواقعه الا طلقات متباعدة متناثرة كأنها حشرجة الموت ·

ورفعت البيارق البيض مرة أخرى ، لم تكن خدعة هذه المرة ، فما عاد فى الأنذال رمق يعينهم على الخداع ، وأخذت أقترب بعربتى رويدا رويدا ، عندما سمعت صوت طلقة تأتى من بعد ·· ثم سمعت

فحيحا يمـر بى كأنه فحيح الأفاعى ، وأحسست بطــرقة بسيطة فى صدرى ٠

ومددت يدى أتحسس صدرى والعربة سائرة ٠٠ والقوات تتقدم من حولنا ٠ فأحسست بلزوجة ساخنة ، ورفعت أصبعى الى ناظرى فلمحت آثار دماء ٠

لقد أصبت

ان الاصابة لا شك بسيطة ٠٠ لم تحدث بى أى تأثير ٠٠ فانا كما أنا ، ما انتابنى ضعف ولا خور ٠٠ انى قوى كما أنا أقف على قدمى وأصلب جسدى ، وانى أستطيع أن أقود سريتى حتى النهاية ، ولقد أضحت النهاية قاب قوسين أو أدنى ٠

حلت النهاية بنصر حاسم لنا ٠٠ وأخذ العدو يستسلم زرافات ووحدانا ٠٠ وقواتنا تطهر مخابئه ومواقعه ، كما تطهر الشقوق مما بها من الحشرات والأفاعى ٠

★ ★ ★

انى أرقد الآن على الفراش ، فقـد نقلونى من العربة بعـد أن أحسست بضيق شديد ، وحملونى من أرض المعركة ، ولكن ليسقبل أن أجنى ثمار النصر ، وأرى بعينى علمنا الأخضر يرفرف فوق حصون الصهيونيين ٠

لقد أصبت بجرح فى الكتف ، لا أظنه على شىء من الخطورة ، وان كنت أكره منه أن يرقدنى هكذا طريح الفراش ٠٠ أجل انى أكره أن أكون جريحا ٠٠

قل لأصحابنا اننى سعيد ٠٠ سعيد بكل شىء ٠٠ وسعيد مهمـا حدث لى ، ولو مت ، فاننى أموت سعيدا قرير النفس ٠

قل لصاحبتى تنتظر ولا تحزن لغيبتى ٠٠ بل تضحك وتبتسم ،

فغدا سأعود اليها شخصا آخر قد كلل الفخار هامته ورفع النصر رأسه ‥ قل لها اننى سأعود اليها ويملأ نفسى الفرح ‥ لأنه سيكون لدى ما أستطيع أن أقصه على أولادنا عندما ننجب أولادا ‥ سيكون لدى ما يملأ نفوسهم فخرا بأبيهم وبأوطانهم ‥ سأقص عليهم كل ما فعلت ‥ ما فعلت أنا لا ما فعله الفراعنة . سأدرس لهم المعارك التى خضتها لا المعارك التى خاضها الانجليز . سأدرس لهم دير سنيد بدل العلمين وواترلو .

قل لمصر تقر عينا ‥ لأنها لن تهون ‥ لن تهون وفى صدورنا قلب يخفق وعرق ينبض ‥ قل لمصر تطمئن فليس فى الكون ما يذل أنفها ، ما دام لها من بنيها درع يصد عنها الخطوب ويرد البلايا .

قل لمصر انها لن تضام ‥ ان فى أجسادنا أرواحا تتوق الى التضحية وتتلهف على الفداء .

قل لمصر اننا لا نخشى الموت ‥ فكل فرد الى الفناء مصيره ‥ ان الفرد فان ‥ أما الأمم فباقية خالدة ‥ ما أعذب الموت الذى يتيح لنا أن نكتب لها سطورا فى صفحات الخلود .

قل لمصر اننا نحمد الله ‥ لأن الله هيأ لنا من الموت فرصة نرد لها فيها بعض الجميل ‥ ونرفع رأسها بين الأمم ‥ لقد ميزنا عن غيرنا ممن لم يعطوا فرصة الموت فى سبيلها .

قل لمصر انها لن تموت ‥ ان أرواحنا فى أكفنا ‥ واننا كرماء ‥ سنجود بها لكى تحيا ‥ ونذهب نحن لها فداء .

والسلام عليكم ورحمة الله .

المخلص (....)

★ ★ ★

ولقد كان الفتى الأمجد صادقا فى قوله ، كريما فى فعله ‥ اذ

جاد بروحه قبل أن تصلنى رسالته ٠٠ لقــد كان جرحه قاتلا فمات لتحيا مصر ٠٠ كيف أبلغ رسالته لصاحبه ؟ ! وماذا أقول لمصر ؟

أما صاحبته فاسأل الله أن يعينها على فقده وأن يهب لها من لدنه رحمة ويهيىء لها من أمرها رشدا ٠

أما مصر فلقد بلغتها ما قال ٠

انى ألمح فى عينيها دمعة تترقرق ٠٠ لست أدرى ، أدمعة حزن ، أم دمعة فرح ٠٠ وأسمع همسات ترسلها اليه مع الريح : « شكرا » ٠

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

رقم الايداع ٧٤٢١/ ٨٦